

برناردان دى سان بيير

الكوخ الهندى

تعريب: فرح أنطون

تقديم: محمد سيد عبد التواب



1335



تتأسس رواية " الكوخ الهندى " على فكرة الرحلة والبحث عن الحقيقة، فالمجتمع العلمى فى لندن يكلف أحد العلماء بالسفر إلى أنحاء العالم من أجل الإجابة عن أكثر من ثلاثة آلاف مسألة علمية. وفى منتصف الرحلة، وبالتحديد بعد ثلاث سنوات من البحث والمناظرات العلمية فى بلدان كثيرة من العالم، يتوقف العالم ليرى كم الكتب التى جمعها، ومع ذلك فقد عجز عن حل مسألة واحدة من الأسئلة التى أرسل للسؤال عنها والبحث فيها، وفى أثناء حيرته هذه، وقبل أن يعود إلى إنجلترا، يبلغه أن الوحيد الذى يستطيع الإجابة عن أسئلته هو " رأس البراهمة " المقيم فى هيكل " جاكرينا " فى الهند. ويسافر العالم ليلتقى مع هذا " البرهمى " رأس الحكمة، ويقرر أن يطرح عليه ثلاثة أسئلة: ما الحقيقة؟ وأين نجدها؟ وما الطريق إليها؟

وكانت المفاجأة فى عجز البرهمى عن الإجابة، ذلك الذى أحاط نفسه بكل أنواع الترف والعبيد لدرجة أن كل هذا عزله حتى عن المؤمنين الذين يذهبون إلى المعبد.



تصميم الغلاف: نسرين كشك

الكوخ الهندى

(رواية معرية)

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة : ميراث الترجمة (روايات معربة)
المشرف على السلسلة : طلعت الشايب

- العدد : ١٣٣٥
- الكوخ الهندى
- برناردان دى سان بيير
- فرح أنطون
- محمد سيد عبد التواب
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية:

Le Chaumière Indienne

Par: Bernardin de Saint -Pierre

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

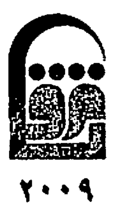
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

برناردان دى سان بيير

الكوخ الهندى

تعـــريب: فـــــــرح أنـطـون
تقـــديم: محـمـد سيـد عبد التواب



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دى سان بيير ، برناردان ، ١٧٢٧
الكوخ الهندى / تأليف : برناردان دى سان بيير،
تعريب : فرح أنطون، تقديم : محمد سيد عبد التواب
تقديم : محمد سيد عبد التواب
القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩
١٢٤ ص ، ٢٠ سم
١- القصص الإنجليزية
(أ) أنطون، فرح (معرِّب)
(ب) عبد التواب، محمد سيد (مقدم)
(جـ) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٧٨٨٧
الترقيم الدولى 978-977-479-146-4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

تقديم

برناردان دى سان بيير (١٧٣٧ - ١٨١٤)

فى سنة ١٨٥٢ احتفلت حكومة الجمهورية الفرنسية بإقامة تمثال من البرونز صنعه " جاك لويس دافيد " المثال الشهير فى أحد ميادين ثغر الهافر لبرناردان ، وهو ممسك بإحدى يديه قرطاساً وبالأخرى قلماً وعند قدميه صبى وصبية يتصافحان تحت ظل شجرة من أشجار المناطق الحارة . فما قصة هذين الطفلين إنهما بول وفرجينى ؛ أجمل ما كتب برناردان .

ولد برناردان دى سان بيير في التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٧٣٧ بالهافر من أبوين كانا يدعيان اتصالهما بالنبيل أوستاش دى سان بيير حتى إنه ولع من صغره بهذه النسبة فانتحل لنفسه لقب (شفالييه) .

ولقد كان فى صباه رقيق المشاعر ، عصبى المزاج ، كثير الجرى وراء الخيال حتى طمحت نفسه إلى تأسيس جمهورية مثالية واسعة من

طائفة العاثرين البائسين، يكون هو واضع شريعتهم ومنظم حياتهم فكان في هذا الخاطر مثل جان جاك روسو ، إلا أن هذا كان يرى أن يعود الناس إلى فطرتهم الأولى ، فيعيشون عيشة صافية في ظل شريعة الكون التي سنها الخالق ، أما برناردان فكان يرى أن يضع لهم نظامًا جديدًا يحارب به قسوة الحياة الحالية وويلاتها . فكتب " أركاديا " عام ١٧٨١ مما دفعه للقيام برحلات في مالطا وروسيا وبولندا وألمانيا . وقد أمدته تلك الرحلات بملاحظات عديدة عن الطبيعة والإنسان.

وبعد إقامة طويلة في جزيرة موريس، والتي كانت تسمى جزيرة فرنسا في الفترة من ١٧٦٨ إلى ١٧٧٠ ، عاد إلى باريس حيث كان خليفة لروسو مؤكدًا منذ تلك اللحظة :

" أن سعادة الإنسان قائمة على سلوك سبيل الحياة حسبما تتطلبه الطبيعة والفضيلة .

وأن الفضيلة العامة مهما بلغ من اتساعها فإن مكانها الأول في نفس كل فرد؛ ولذلك عدل عن فكرة الجمهورية التي حاول إنشاءها واقتصر على وصف حياة بعض الأسر المنزوية في ظلال الوحدة التي تتذوق طعم النعيم في حجر الطبيعة ، وعند بساط الفضيلة .

وهكذا ظهرت رائعته الخالدة (بول وفرجيني) عام ١٧٨٧ ، فهزت أوتار المشاعر وملكت أزمة القلوب ، في جميع أنحاء فرنسا؛ مما جعل إمبراطورها (نابليون بونابرت) يمنح صاحبها وسام الشرف .

كان للنجاح الذى حققته دراساته عن الطبيعة وبول وفرجينى تأثيره الكبير على برناردان فكتب Le chaumière indienne أو " الكوخ الهندى " عام ١٧٩٠ التى نشرت فى باريس بدار نشر " ديرولوجون ".

وتنتمى هذه الرواية إلى الروايات الفلسفية التى كتبها جان جاك روسو " هيلويز الجديدة" ، وفولتير " كانديد " ١٧٥٩ .

وجدير بالذكر أن أهمية هذه الرواية مرتبطة بسياق الثورة الفرنسية والهجاء العنيف للكنيسة ، فالنقد الاجتماعى الموجود بها يعطى لها أهمية خاصة ربما تتجاوز " بول وفرجينى " . ويبدو تأثير برناردان بأسلوب فولتير فى الكتابة كما يبدو فى الأماكن المرجعية الكثيرة فى الرواية ووصف الطبيعة .

المنوّر (فرح أنطون) (١٨٧٤ - ١٩٢٢)

كان فرح أنطون واحداً من أبرز المثقفين السياسيين والاجتماعيين العرب فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ورائداً من رواد النهضة والاستنارة العربية . التى كانت هاجسه الكبير من أجل أن تجد الأمة العربية مكانتها بين الأمم .

فرح أنطون المولود فى مدينة طرابلس اللبنانية ، تخرج فى مدرسة كفتين ، التى كانت فى طليعة المعاهد الوطنية آنذاك . وكان من أساتذته فيها جبر ضومط وأنطون شحيبر . وانتهى من المدرسة ونال شهادتها

فى السادسة عشرة من عمره ، وعكف على الدرس والمطالعة حتى أتقن الفرنسية .

ثم عمل مع أبيه فى تجارة الخشب ، إلا أنه لم يستطع الاستمرار فى هذا العمل لعدم اقتناعه بأنه يمثل طموحاته وآماله؛ ولذا قدم إلى الإسكندرية سنة ١٨٩٧ ، وأخذ يكتب بأسماء مستعارة فى بعض الصحف والمجلات .

وكتب أثناء ذلك مقالاً بعنوان " دائرة الحق " نشرته له " الأهرام " بإمضاء " سلامة " فكان له دوى كبير.

ثم أصدر مجلته " الجامعة " سنة ١٨٩٩ ، وظل يحرر جريدة " صدى الأهرام " فى الإسكندرية مدة طويلة ، وجرت بينه وبين الإمام محمد عبده مناقشة طويلة حول العلم والمدنية فى نظر الإسلام والمسيحية فكان لها شأن كبير .

وسافر إلى أمريكا سنة ١٩٠٧ مع زوج شقيقته (نقولا حداد) حيث أصدر مجلته (الجامعة) أيضًا هناك لكنه لم يستمر إلا فترة عاد بعدها إلى القاهرة ليتابع إصدار مجلته وليحرر فى صحيفة اللواء والبلاغ المصرى.

وفى أثناء ذلك أصدر فرح أنطون بعض الروايات وترجم بعض الكتب وقدم الكثير من المسرحيات والأوبرات .

ومن اللافت فى حياة فرح أنطون أنه كان فى طليعة الكتاب الذين طالبوا بحرية الكاتب والشعوب العربية بعيداً عن أى ارتباطات طائفية أو عرقية أو أى مؤثرات خارجية ، وفى هذا يقول (طيب تيزينى) فى تقديمه لكتاب فرح أنطون (ابن رشد وفلسفته) :

" إن المفكر المنور فرح أنطون ينطلق من أن تحرير العقول من التعصب الدينى وضيق الأفق العقلى يمثل المدخل إلى فهم كيفية تحقيق التقدم فى الشرق ولذلك كان يهدف من ورائها إلى الحث على التفكير العقلى والتسامح الكونى " .

فقد تأثر بأفكار المصلحين الأوروبيين (روسو) وفولتير ورينان، كذلك بالفلاسفة العرب أمثال ابن رشد وابن طفيل والغزالى؛ ولذلك لم يكف عقل فرح أنطون عن وضع كل شيء موضع المساءلة ، فأثار العواصف من حوله ، بأفكاره الجريئة ؛ فاصطدم بالسلطة الدينية من رجال الدين المسيحى فاتهموه بالإلحاد والعلمانية.

وحمل عليه الأب لويس شيخو (١٨٥٩-١٩٢٧) لأنه ترجم كتاب الفيلسوف الفرنسى أرنست رينان " تاريخ المسيح " قائلا : فما كان بأنطون أن يضنّ بشرفه ودينه عن نقل سفاسفه فيعز علينا أن نرى حاملى الأقلام فى بلادنا ينشرون دون تعقل مبادئهم المستقبحة ، فيلقون قراءهم فى وهاد الإلحاد وقعر الفساد ، وكان بوسعهم أن يهذبوا عقولهم ، ويرقّوا أخلاقهم ، ويجعلوهم سنداً لوطنهم " .

لم يخف فرح أنطون من هجوم " المكفراتية " حسب تعبير د/ جابر عصفور ، وظل يدعو إلى المساواة بين البشر والإلحاح على أولوية العقل فى تأسيس نهضة فكرية عربية.

يقول فرح أنطون فى رده على هجوم الأب لويس شيخو السابق : " معاذ الله أن نروم هدم الدين ، كما تفترون علينا ، وإنما نروم هدم الأوهام والخزعبلات فى الدين . فلماذا تجعلون هذه قسمًا منه ؟ وأولى هذه الخزعبلات قولكم : إن الإنسان لا يمكن أن يعبد الله ، ولا يفهم الكتب الدينية ، إلا بواسطة كاهن أو شيخ . وبذلك تضعون أنفسكم بين الله وبين عباده ؛ رفعًا لشأنكم وطلبًا للفائدة لكم ".

لم يكن غريبًا إذن أن يوصف فرح أنطون من مفكرى عصره بأنه " رسول الديمقراطية " وقد كتب العقاد حين رحل أنطون " إنك يا فرح طليعة مبكرة من طلائع هذه النهضة العامة وسيعرف المستقبل من عملك ما لم يعرفه الحاضر". ووصفه مارون عبود بأنه " أحد رواد النهضة العربية ".

ومن أبرز الأعمال التى تركها لنا فرح أنطون :" ابن رشد وفلسفته ، الحب حتى الموت ، الدين والعلم والمال أو المدن الثلاث ، الوحش الوحش الوحش ، أورشليم الجديدة ، مريم قبل التوبة "

أما الكتب التى ترجمها فهى (الكوخ الهندى ، بولس وفرجينى ، أتالا ، ابن الشعب ، نهضة الأسد).

الكوخ الهندى

البحث عن الحقيقة

بداهة ، يبقى النص الروائى سواء أكان مؤلفًا أو معربًا رهين الكاتب نفسه ، ورهين حالته الفكرية والشعورية فى أثناء كتابة النص أو تعريبه ، أو " رهين الفكرة السياسية أو الأيديولوجية التى يؤسس لها النص أو التى تستخدم النص قناعًا أو ذريعة فنية ".(١)

فالشكل الروائى باعتباره شكلاً جديدًا فى السياق الثقافى العربى الحديث ، ومتحررًا من آليات السائد فى الكتابة العربية – قد أسهم فى إنطاق المسكوت عنه من الأفكار والقضايا .

وفى السياق نفسه تبدو إشارة د/ جابر عصفور ذات أهمية خاصة ، يقول : أحسب أن واحدًا من أهم الأدوار التى لعبتها الرواية فى عصر الإحياء ، من حيث علاقتها بالتنوير فى ذلك العصر : إنطاق المسكوت عنه من الأفكار الجذرية التى انطوت عليها طليعة العصر ،

---

(١) راجع ، منصور قيسومة : الرواية العربية الإشكال والتشكل ، دار سحر للنشر ، ص١٤٤

سواء في انقطاع هذه الطليعة عن الثوابت الباقية من ميراث التخلف ، أو تطلعها إلى وعود الزمن القادم بلوازم التقدم ".[1] لذا وجد فرح أنطون في أسلوب الرواية فضاءً رحباً للتصريح بهويته المفتقدة .

وجدير بالذكر أن فرح أنطون كان نسيج وحده بين كتاب القصة في هذه الفترة "، على حد تعبير محمد يوسف نجم؛ لأنه "كتب القصة التي تحمل فكرة عميقة طريفة ، لا لمجرد التسلية ، بل لتحمل رسالته الاجتماعية التي تعرفنا إليها في مجلته وكتبه ومترجماته ".

فرواية " الدين والعلم والمال أو المدن الثلاث " (١٩٠٢) هي بحث فلسفي اجتماعي ، وهو يعترف بذلك فيقول في المقدمة :

" وقد سميناه هنا رواية على سبيل التساهل؛ لأنه عبارة عن بحث فلسفي اجتماعي في خلائق المال والعلم والدين ، وهو ما يسمونه في أوروبا بالمسألة الاجتماعية .... وهي عندهم في المنزلة الأولى من الأهمية لأن مدينتهم متوقفة عليها ".

كان طبيعيًا أن يصدر هذا عن فرح أنطون ، المفكر والمصلح الاجتماعي ، فهو لا يقصد تسلية القارئ بحوادث ومغامرات ، امتلأت بها روايات تلك المرحلة ، وإنما يريد توعية القراء وتعليمهم .

---

(١) راجع جابر عصفور ، غاية الحق ، هيئة الكتاب ، ط٢٠٠٠ ، ص٢٣ المقدمة.

تتـأسـس رواية " الكوخ الهندى " على فكرة الرحلة والبـحث عن الحقيقة ، فالمجتمع العلمى فى لندن يكلف أحد العلماء بالسفر لأنحاء العالم من أجل الإجابة عن أكثر من ثلاثة آلاف مسـألة علمية. وفى منتصف الرحلة ، وبالتحديد بعد ثلاث سنوات من البحث والمناظرات العلمية فى بلدان كثيرة من العالم ، يتوقف العالم ليرى كم الكتب التى جمعها، ومع ذلك فقد عجز عن حل مسألة واحدة من الأسئلة التى أرسل للسؤال عنها والبحث فيها ، وفى أثناء حيرته هذه ، وقبل أن يعود إلى إنجلترا ، يبلغه أن الوحيد الذى يستطيع الإجابة على أسئلته هو " رأس البراهمة " المقيم فى هيكل " جاكرينا " فى الهند. ويسافر العالم ليلتقى مع هذا " البرهمى " رأس الحكمة ، ويقرر أن يطرح عليه ثلاثة أسئلة : ما الحقيقة ؟ وأين نجدها ؟ وما هى الطريق إليها ؟

وكانت المفاجأة فى عجز البرهمى عن الإجابة ، ذلك الذى أحاط نفسه بكل أنواع الترف والعبيد لدرجة أن كل هذا عزله حتى عن المؤمنين الذين يذهبون للمعبد .

وهنا يكمن نقد برناردان دى سان بيير العنيف للكنيسة ، فالحوار الذى تم بين العالم والبرهمى لم يكن مباشراً وإنما بواسطة شلال من المترجمين .

وفى نهاية الرحلة يجد العالم إجابة أسئلته عند فقير هندى يسمى " الخارجى " ، يملك حكمة فاقت " رأس البراهمة "؛ فالسعادة والحقيقة

مقرهما القلب البسيط دون تعقيدات وتأويلات ، يقول : إنما الطريق إلى الحقيقة والمرشد الأمين إليها هو القلب الساذج السليم : هكذا أجاب فقير الهند .

لا يستطيع قارئ رواية " الكوخ الهندى " أن ينكر تأثر فرح أنطون بالثورة الفرنسية وأفكارها ، لقد تمثل طموح فرح أنطون فى تحرير الشعب العربى من سلطة التيار الدينى ، وتحقيق مصالحة بين التيارات المختلفة ، وفق مبادئ العلم والعقل والفلسفة فى فضاء من حرية الفكر والتعبير .

فحضور " البرهمى " رجل الدين فى الرواية يمثل هذا الزيف المحاط بكل أشكال الترف والمظاهر الشكلية، إنما يفضح فضاءات أدعياء المعرفة والعلم . لقد استطاع فرح أنطون تعرية ظواهر وقضايا قلما يتم الحديث عنها بل ويحرم حتى السؤال حولها . وغير بعيد عن ذلك ما تعرض له فرح أنطون من هجوم رجال الدين كما أشرنا سابقًا .

وأخيرًا ، تبقى أفكار فرح أنطون النهضوية علامة بارزة فى تأسيس النهضة العربية ، ولأن الأفكار لا تموت ، بل تمتلك أجنحة تطير بها من مكان إلى مكان ، وزمان إلى زمان ، فنردد مع فرح أنطون ما قاله من مائة عام : " أن لا مدنية حقيقية ولا تساهل ولا عدل ولا مساواة ولا أمن ولا ألفة ولا حرية ولا علم ولا فلسفة ولا تقدم ، إلا فى ظل مجتمع متطور ومتجانس ، ومفاهيم حضارية جديدة " .

محمد سيد عبد التواب

مقدمة المعرِّب للطبعة الثانية

(الروايات الاجتماعية والتاريخية) إن الكوخ الهندى ثانى كتاب اشتغل المعرّب بوضعه. أما الكتاب الأول فهو المرأة فى القرن العشرين) للفيلسوف جول سميون وهو كتاب أدبى فلسفى اجتماعى بعين وظيفة المرأة فى هذا القرن ولم يُنشر بعد مع أن مؤلفه رحمه الله أذن قبل وفاته للمعرّب بنشره فى كتاب خصوصى منه . وقد عرَّب المعرّب الكوخ الهندى فى سوريا فى سنة ١٨٩٥ أى منذ إحدى عشرة سنة. ولما نشر هذا الكتاب فى مصر سرَّ به القراء سروراً عظيمًا . وكتب إلينا بعضهم يقول: إنه لم يقع له قط فى حياته أنه تأثر بمطالعة كتاب تأثره بالكوخ الهندى ومبادئه الجميلة. لأنه شعر بعد مطالعته أنه أصبح أفضل وأرقى منه قبل مطالعته.

ولم نذكر هذا الأمر هنا بيانًا لفضل مبادئ هذا الكتاب؛ فإنها فى غنى عن ثناء المعرّب. ولا يلذ لنا فى جميع الكتب التى نشرتها الجامعة كتاب أكثر مما يلذنا هذا الكتاب. ولذلك كلما وقع تحت يدنا اتفاقًا تناولناه وقرأنا فيه الحوار بين العالم الإنكليزى والخارجى وسرد

الخارجى تاريخ حياته. ويخيل لنا حين قراءة تلك الفصول أنها صورة حقيقية لعالم الكمال الذى ينشده الفلاسفة وأهل العقول.

وإنما ذكرنا ما تقدَّم استطراداً إلى ذكر السبب الذى أوجب ارتياح القراء إليه. وهو موضوع يجرنا إلى بسط وظيفة الروايات وأنواعها والغرض منها. والذى حملنا على طرق هذا الموضوع فى هذه المقدِّمة ما نقرؤه أحياناً لبعضهم من الكلام فى الروايات وأنفعها للشرق وأبنائه.

بسطنا فى غير هذا المكان[١] رأينا فى وظيفة الروايات والشروط اللازمة لواضعها فلا نبحث هنا فيها. وإنما نبحث فى أهم الروايات وأنفعها لنا . ومتى قلنا: « أهم الروايات وأنفعها لنا » خرجت منها الروايات التى يُقصد بها التفكهة وقطع الوقت وهى التى يتجر بها أصحاب المكاتب والمطامع الصغيرة. وانحصر كلامنا فى الروايات التى يضعها مؤلفوها لفائدة يقصدونها. وبحثنا هنا فى أمرين:

(الأول) ما هى الفائدة التى نحن أشد احتياجاً إليها فى الشرق؟

(والثانى) أى نوع من أنواع الروايات يوصلنا إلى هذه الفائدة؟

الأمر الأول - كنا نبحث فى داء الشرقيين ودوائه. وكل واحد منا يشخص العلة من وجه ويصف لها الدواء الذى يراه. فبعضهم يقول:

(١) نشرت الجامعة فى الجزء الثامن للسنة الخامسة مقالة عنوانها (إنشاء الروايات العربية والشروط الواجبة اجتماعياً فى واضعها).

داؤنا السياسة، وغيره يقول: داءنا الرئاسة. وآخر يقول: داءنا انحطاط التجارة والصناعة والزراعة وعدم وجود قوة سياسية تحميها في داخل الأمة وفي خارجها. وغيرهم يقول: إن داؤنا تعدد عناصرنا ومذاهبنا واستحكام الانقسام والبغض في نفوسنا. وآخر يقول: لا بل داءنا تربية مدارسنا فإن دروسها وتربيتها لا تنطبق على حاجاتنا وأخلاقنا. وآخر يقول : لا بل داءنا منازعة الأجانب لنا «الرزق والسيادة» في بلادنا منازعة تحول دون إصلاح شؤوننا.

على أن المتأمل البصير الذي ألف النظر في أخلاق الأمم ومعرفة الأسباب التي ترفعها وتحطها يرى بعد إعمال الفكر في جميع الوجوه التي تقدَّمت أن هنالك سببًا قويًا جميع تلك الأسباب. ولا مشاحة في أن تلك الأسباب أسباب حقيقية للانحطاط ولكنها في الحقيقة أسباب فرعية أي مسببات لا أسباب. وأما السبب الذي أشرنا إليه هنا فهو الأصل الذي تفرَّع منه جميع بلايا المشرق وهو (عدم وجود الشخصيات الراقية بين أبنائه).

قد يمكن أن ترتفع الأسباب السياسية والدينية. قد يمكن أن تروج التجارة والصناعة والزراعة. قد يمكن أن تتحد عناصر الأمة ومذاهبها بتأثير يدٍ قوية تحسن إدارة أزمة الأحكام. قد يمكن أن تعود أوروبا إلى رشدها فتنظر إلى بلاد الشرق نظرها إلى أمم تريد لها الحياة لا إلى مستعمرات - كل ذلك قد يمكن أن يقع بأعجوبة أو بغير أعجوبة. ولكن قوعه وحده لا ينيل الشرقيين ما يتمنونه من صيرورة أممهم أممًا عزيزة راقية. بل يقيمون حينئذٍ على دورانهم في دائرة الانحطاط التي

كانوا يدورون فيها حين كانوا أذلاء ضعفاء فقراء. تراهم يركضون ويجدُّون المال أكداسًا إلى أكداس فتخالهم صاعدين موثقين والحقيقة أنهم مازالوا يدورون ضمن تلك الدائرة. إنهم كانوا من قبل فقراء منحطين فأصبحوا بعد رواج أعمالهم أغنياء منحطين. وربما زادهم الغنى انحطاطًا؛ لأن الثروة تُبطر صاحبها إذا لم يكن أهلاً لها فضلاً عن أنها تسهل له من إتيان الصغائر والكبائر ما كان عاجزًا عنه قبل الوصول إليها .

بعدما تقدم تتضح لنا الأسباب في وجود مسائل نشكو ونعجب منها جميعًا . فإننا نعلم بعده لماذا لا نعتبر أممنا أممًا مجموعة بجامعة يحترمها الجميع ويخدمها الجميع بل نعتبرها أفرادًا متفرقين ولكل واحد منهم مصلحة خاصة يسعى إليها. ولماذا يبتسم أكثرنا مزدرين ضاحكين حين يسمعون كلمة (المصلحة العمومية). نعلم لماذا الذين أصبحوا منا قادرين على النفع بثروتهم التى حصلوها (بطرق مختلفة) ليس لهم همٌّ إلاَّ التمتع بها بوقاحةٍ وبلهٍ دون أن يعملوا شيئًا نافعًا للأمة التى خرجوا منها وتحمل كل أثقالهم. نعلم لماذا حكامنا ورؤساؤنا مدنيًا ودينيًا متى ولوا شأنًا عموميًا استخدموه لجر النفع إلى أنفسهم . لاعتبارهم الرعية بقرة حلوبًا. نعلم لماذا نرى الأقوال عندنا كلها سامية جميلة والآداب الاجتماعية والسياسية فى أرقى مظاهرها فى الظاهر ولكن الأفعال والبواطن مما يُضحك ويُبكى. نعلم لماذا لا نقدر على الاجتماع والتعاون ففقدنا بذلك أعظم القوات والعوامل فى رفع الأمم كإنشاء الجمعيات

المختلفة للعلم والأدب والزراعة والصناعة والتجارة التى عليها مدار الارتقاء فى هذا العصر وبدونها لا يقدر الفرد أن يصنع شيئًا عظيمًا أو يحصل حقًا ضائعًا. حتى قال بعضهم فى أوروبا: إن جمعيات العملة والزراعة والتجارة والصناعة هى التى تسوق اليوم السياسة والساسة فى سبيل الارتقاء بقضيب من حديد.

فالدعوة إلى «إيجاد شخصيات راقية» فى الشرق وتسهيل السبيل لها هى خير ما يُخدم به الشرق وأبناؤه. وهذه الشخصيات الراقية توجد إما فى الهيئة الحاكمة وحينئذٍ ترقى الأمة وتوجد فيها شخصيات راقية طوعًا أو كرهًا، وإما فى الهيئة المحكومة فتلزم الهيئة الحاكمة سبل الرشاد والسداد طوعًا أو كرهًا. وارتقاء كل أمة إنما يقاس بعدد الشخصيات الراقية التى فيها. وهى نتيجة تهذيب النفس والعقل وثمرة اختمار المبادئ الكريمة فيها وتأثير الوسط الذى يعيشان فيه جيلاً بعد جيل. وما « الإصلاح الاجتماعى » الذى يدوى صداه فى آذان الناس فى هذا العصر إلا هذا الإصلاح.

على أن مقدمة رواية كهذه المقدّمة لا تحتمل هذا البحث وليس هو من مواضيعها. وإنما جرّ الكلام إليه ما قصدناه من بيان المبدأ الأول الذى يحتاج الشرق إليه وبدونه لا تقوم له قائمة؛ لأنه يبنى على غير أساس . فأنقع المطالعات لأبناء الشرق ما كان موضوعه « الإصلاح الاجتماعى » الذى تقدّم ذكره. الذى أهم أغراضه ومراميه «إيجاد شخصيات راقية».

الأمر الثانى : «أىُّ أنواع الروايات توصلنا إلى الفائدة التى تقدَّم ذكرها فى مقدمة الكلام؟» وهذا هو موضوع هذه المقدمة الحقيقى .

إن فى الطبيعة البشرية عادة مألوفة وهى "جرّ الإنسان الحبل لصوبه» كما يقول العوام. فكل إنسان يدعو إلى مبدئه ومذهبه ويقبح رأى غيره. وأحيانًا يكون هذا التقبيح مضحكًا وأحيانًا يكون مقبولاً. وإنما يكون مضحكًا متى كان المقبح لا يرى إلا بعين واحدة .

فإما أن يجهل ما فى رأى غيره من الصواب وإما أن يتجاهله لترويج بضاعة أو لاعتقاده حقيقة أنه غير صواب. ومذهب «الجامعة» ومبادئها فى رواياتها وغير رواياتها معروفة عند قرائها فلا حاجة إلى بسطها لتبيان فضل «الرويات الاجتماعية» عندها على سائر الروايات. ولكنا مع هذا لا نجرُّ الحبل كثيراً لصوبنا لكراهتنا هذا الخطأ الذى قد يقع فيه غيرنا.

إن الروايات التى تُنشر الآن باللغة العربية بعضها موضوع للفكاهة والخلاعة وهذا النوع لا ننظر فيه لأنه لا يستحق نظراً. وبعضها معرَّب والقصد منه إبراز أحاسن الروايات الإفرنجية وهو نادرٌ جدًا وقلما يكون مستوفيًا شروط تلك الروايات. وبعضها تاريخى. وهذا النوع التاريخى قسمان. فقسم منه يتضمن تاريخ الأمم الأوروبية وقسم يتضمن تاريخ بعض أمم المشرق. أما القسم الأول فلا يستحق النظر أيضًا؛ لأننا فى

غنى عن تاريخ أمم أوروبا ومن يُبرز منه شيئًا عندما فلا يُبرزه إلاَّ للفكاهة. وأما القسم الثاني وهو تاريخ بعض أمم المشرق فالكلام فيه حسن؛ لأنه يوقف أهل ذلك التاريخ على تاريخهم ولكنه يتوجه على الروايات التاريخية أربعة اعتراضات:

(الاعتراض الأول) أنها أمر « كمالى» بالنسبة إلينا. فإن التاريخ لا يخرج عن كونه عبارة عن ذكر أيام مضت وحوادث خلت. والأمم التى لم تتكون بعد أو التى تكوَّنت وانحلَّت لا يفيدها تاريخها شيئًا سوى تذكيرها بعظمة ساقطة ومجد ذاهب. وهى قبل كل شىء تحتاج إلى قوات تنهض بها وتوجد «الشخصيات الراقية» التى أشرنا إليها أضعاف حاجتها إلى تاريخها. وإن علم التربية وعلم الاجتماع والنشاط والحماسة للعمل ونصب أغراض شريفة أمامها وحثها على السعى إليها وجمع كلمتها عليها بتأليف رأى عام منها كل هذه مقدَّمة فيها على جميع علوم التاريخ البشرية والإلهية. بل إن أصغر مبادئ الزراعة الأولى وأحقر مبادئ الصناعة الأولى مفضلة فيها على جلال التاريخ وعظمته. فالذى يصرف فكرها إلى حوادث تاريخها الماضية بكتبه ورواياته قد يفيدها ولكن فائدتها من ذلك لا تكاد تُذكر لأن مثلها حينئذٍ يكون مثل فقير ذى إطار يعلق فى ثوبه ساعة وسلسلة من نضار. قال برناردين دى سان بيير مؤلف هذه الرواية (الصفحة ٣٩): « أية حاجة بنا إلى التاريخ وكتبه وأى تأثير للتاريخ فى سعادتنا فى الأرض؟ بل أية علاقة بين السعادة وذكر حوادث مضت وأيام خلت؟ إن تاريخ ما كان لهو تاريخ ما

هو كائن وما سيكون » وقال الفيلسوف نيبتش فى كتابه (ما وراء الخير والشر) : « إن المؤرخين لكثرة تفكيرهم فى الماضى وتنقيبهم فيه ينتهون إلى أن ينزلوا التاريخ منزلة كل شىء فيصير مثلهم مثل السرطان الذى يمشى إلى الوراء وهو يحسب أنه يمشى إلى الأمام » يريد بذلك أنهم يتأخرون وهم يحسبون أنهم يتقدمون.

(الاعتراض الثانى) أن الروايات التاريخية هى سم للتاريخ قتّال؛ وذلك لأنها تكون مزيجًا من الحوادث المخترعة والحوادث التاريخية وفى ذلك إفساد التاريخ بدل تحقيقه. ولا بأس من ورود التاريخ فى الروايات ولكن يجب أن يكون وروده عرضًا والعمدة تكون على ما فى الرواية من الأفكار والمبادئ الاجتماعية التى هى غرض الرواية الحقيقى. لأن الروايات الخطيرة المهمة فى هذا العصر إنما هى روايات اجتماعية.

(الاعتراض الثالث) أن كتب التاريخ تُكتب للخواص فالكاتب يجد فى نفسه شيئًا من الجرأة على الجهر بما يرى الجهر به حقًا فى التاريخ وإن ساء بعضهم لأن فى أفاضل الخواص من كل الأمم ميلاً لمسامحة الكاتب ومعذرته إذا كانوا يعتقدون إخلاصه. أما روايات التاريخ فأكثر اعتمادها فى رواجها على العوام والسذج وهؤلاء لا يسامحون ولا يعذرون . ولذلك يضطر الكاتب إلى مجاراته ترويجًا لبضاعته فيشوه التاريخ فى رواياته بكتمان ما كان الجهر به من أول شروط التاريخ

وبتحسين وتزيين أمور تزيد السذج تمسكًا بأوهامهم وأغلاطهم. خصوصًا إذا كان الكاتب من أمة والقراء من أمة وعلى الأخص فى بلاد المشرق. وبذلك يكون وجود تلك الروايات وعدمها سيان؛ إذ الفائدة الحقيقية فى الروايات هى ما فيها من الجرأة والقوة الأدبية التى تحمل قراءها على ترك ضعفهم وأوهامهم لا زيادة تمسكهم بها.

(الاعتراض الرابع) قال المسيو إدوار رود منذ سنتين فى مقالة افتتاحية فى جريدة الفيغارو فى أثناء كلامه عن التاريخ وكبار المؤرخين الفرنسيين كتيبرس وتان ورنان وميشله وغيرهم ما خلاصته : أنه يجب على الناس أن يعلموا أن كتب التاريخ التى يقرأونها باللغة الفرنسية وغير الفرنسية لا يُركن إليها مهما ادعى أصحابها التحقيق والتدقيق؛ وذلك لسببين: الأول أنهم يتخذون فيها طرق الاستنتاج والقياس وفى أكثر الأحيان يجيء استنتاجهم وقياسهم فاسدين ولذلك ترى آراءهم فى التاريخ متخالفة متباينة ينقض بعضها بعضًا. وكل مؤرخ منها يكتب التاريخ كما يتراءى له. والثانى أن المصادر التى يعتمدون عليها ويستقون منها أكثرها خطأ؛ لأن رواتها أخطأوا فى النقل والرواية. وإنك لترى المؤرخين الذين عاشوا فى الزمن الأخير إذا كتبوا تاريخه اختلفوا فى رواية حوادثه وتفسيرها فكيف بهم إذا راموا كتابة تاريخ زمن لم يشهدوه ولا علموا شيئًا عنه غير ما نقلته الكتب لهم. وليس فى التاريخ شيءٌ ثابت يمكن الوثوق بصحته غير الحوادث والأرقام والأوراق الرسمية التى وصلت إلينا من تلك الأزمنة البعيدة . قلنا: وكل من

تصفح كتب المؤرخين العربية والإفرنجية ورأى فيها تناقض الآراء والحوادث والأرقام لا يسعه إلاَّ أن يسلم بصحة هذا القول الذى ساءَ مؤرخى أوروبا ولكنه صحيح. وما التحقيق فى التاريخ خصوصاً التاريخ القديم وبالأخص الشرقى منه إلاَّ خرافة ودعوى لا يقوم عليها دليل. وليس هنالك تاريخ بل آراء مختلفة وظيفة الباحث فيها (الترجيح بينها) لا (تحقيقها). وإنزال تلك الآراء والحوادث منزلة رفيعة من الأهمية، وبذل الإنسان قوته ونشاطه وعلمه ووقته فيها إنما هو من قبيل الاشتغال بشىءٍ مشكوك به وفائدته لا تعدل التعب فيه. ولذلك قال رنان قبل وفاته: إننى آسف لأننى صرفتُ عمرى بكتابة تواريخ قلٌ من يتصفحها أحد بعدى. قال ذلك مع أنه إذا لم يكن فى كتبه شىءٌ غير جمال إنشائه فى كتاباته؛ فإن هذا كافٍ - كما قال بعض كتاب الفرنسيين - لأن يبقى جميع ما كتبه خالداً بين أيدى الناس ومقصداً لطلاب الجمال وحلاوة القلم.

فبعد ما تقدم لا ترى للروايات التاريخية وظيفة سامية بين الروايات. إلاَّ إذا كان المقصود بها مجموعة قصص وفكاهات لتسلية الخاطر وترويح النفس فى ساعات الفراغ. وظاهرٌ بنفسه بعد هذا أن الوظيفة العليا بين أنواع الروايات هى للروايات الاجتماعية الفلسفية .

وقد ذكرنا كل ما تقدم لغرض لم نذكره حتى الآن وهو الدفاع عن الروايات الاجتماعية والفلسفية. فإن بعض الكتاب رأى أن هذه الروايات

«روايات كمالية» لا نحتاج إليها فى هذا العصر بل نحتاج إلى روايات Pratique وربما وجد قوله هذا موافقين ومصدقين له دون أن ينظروا فى لباب هذا الموضوع؛ لأن الناس اعتادوا موافقة من يعتقدون فيه أصالة الرأى وصدق النظر. وقد تقدَّم إثبات أن الروايات غير الاجتماعية هى الروايات الكمالية.

وقد يستغرب القارئ اهتمامنا بهذا الموضوع الصغير وتخصيص بضع صفحات به. ولكن الكاتب الذى تتبع آراء الشرقيين ومطبوعاتهم بانتباه وإمعان لا يعده موضوعًا صغيرًا بل كبيرًا. وربما يراه أكبر موضوع إذا نظر فيما يلى :

أن كثرة الكتاب فى الشرق وتعدُّد الآراء وتنوُّع اللغات والتربيات قد جمعت فى كتبه ومجلاته وجرائده جميع الآراء الفلسفية ومذاهب الأدب الكتابى. قد اجتمعت متناقضة متضاربة وأصبحت خليطًا من جميع المذاهب فى الكرة الأرضية، فترى فيها مذاهب سبنسر وكونت وداروين وماركس والقديس توما وأفلاطون وأرسطو وأبيقور (الكلبى كما يسميه جمال الدين الأفغانى) وفلاسفة الإسكندرية وشوبنهور ونيبتش وقنت وزولا وهيغو ومذاهب القرآن والتلمود والتوراة والإنجيل والفيدا كلها - أى كل هذه المذاهب المختلفة - تراها فيه متجاورة مشتبكة اشتباك الأسل. وليس هذا بالأمر الغريب العجيب فإن بابل وجدت قبل اليوم على ما جاء فى التوراة .. وإنما الغريب العجيب أمران: الأول اجتماع

المتناقضات من هذه المذاهب فى حيز واحد دون أن يفطن صاحب هذا الحيز لها. والثانى تسفيه صاحب أحد هذه المذاهب لمذهب آخر منها من وجه مذهبه وبطرق مذهبه بدل أن يسفهه من الوجه الخاص بهذا المذهب. وغنى عن البيان أننا نتكلم هنا عن المذاهب الكتابية والفلسفية والأدبية لا المذاهب الدينية . فترى مثلاً بعضهم يكتب يوماً كانه على مبادئ كونت صاحب الفلسفة الوضعية Positivisme السائد روحها اليوم فى أوروبا وأمريكا ويوماً تراه يكتب كأنه على مبادئ قنت وشوبنهور الأيدياليستية . تراه يوماً ينهج منهج زولا فى كتاباته الناتوراليستية (تقليد الطبيعة) ويوماً ينهج منهج فيكتور هيغو فى كتابته الرومانتيكية الأيدياليستية. وقد قرأنا يوماً أثراً من آثار الهمجية القديمة مع أن الرصيفة تدافع عادة أشد دفاع عن جميع المبادئ التى هى عماد الوطنية ودعامتها . وعلة هذا الاختلاط والاختباط عدم وضوح المبادئ بعد لأبناء الشرق للاجتماع حولها أحزاباً كل حزب يعرف أصل مبادئه وفروعه ويجعل خطته الدفاع عنها لموافقتها مزاجه وأخلاقه وآراءه. وإليك مثالاً لهذا الاختلاط والجهل بأصول المبادئ.

قال بعض الكتاب : إن الروايات الاجتماعية والفلسفية (روايات كمالية والأهم منها روايات Pratique وبعد هذا القول قال : إن أحوالنا تحتاج إلى إصلاح وخير سبل الإصلاح تقبيح الرذائل الشائعة كالكذب والخداع والمجاملة والمقامرة والمكر والبورصة وغيرها من الرذائل والمنكرات التى نئن تحت أعبائها .

فالذى وقف على أصول المبادئ الفلسفية والأدب الكتابى يستغرب هذا القول. لأنه يعلم أن الأدب الكتابى فى الفلسفة نوعان Idealiste و Bealiste فالأدب الأيدياليستى مشتق من قوى النفس والعقل. والأدب الرياليستى أو الناتوراليستى مشتق من الطبيعة . الأول يعتمد فى التأثير والإصلاح على قوى نفس الإنسان ويقدّم تأثيرها على كل تأثير. والثانى يعتمد على الطبيعة وقواتها وتقليدها. الأول يقول : صوروا ما هو أسمى من الطبيعة لرفع النفوس به. والثانى يقول : إن ما هو أسمى من الطبيعة خيالى وهمى أو كمالى، وحسبنا الطبيعة وتقليدها وتصويرها لأن فوائدها Pratique فإذا عدتّ الآن إلى الاعتراض الذى تقدّم وجدت أن المعترض يقول: إن المذهب الأيدياليستى أمر كمالى. وهو اعتراض جائز مثلاً لمن كان رياليستيًا كالفيلسوف نييتش الذى أدمى الأيدياليست نقدًا وتهكمًا . ولكن متى سفّه المعترض المذهب الأيدياليستى ذلك التسفيه ثم عاد فقال ألفوا فى اجتناب الكذب والخداع وما أشبهها من النقائص الاجتماعية فإنه يخلط بين المبادئ دون أن يشعر. ذلك لأن توقع الإصلاح من محاربة الكذب والخداع وما أشبههما هو من مذهب الأيدياليست. ومذهب الرياليست يتساهل أحيانًا مع الكذب والخداع وقد قال نييتش : إنهما حق للضعيف ومن ملازمات العمران. فالنتيجة التى تخرج من هذا هى أن المعترض يسفه من جهة مذهب الأيدياليست لأنه

خيالي وهمى فى رأيه ومن جهة أخرى يدعو إلى إصلاح البشرية. وهو منتهى السذاجة والجهل بالأصول .

وليس غرضنا فى هذا الفصل شرح مذهب الأيدياليستيين والرياليستيين وإظهار آثارهما فى المجتمع البشرى ومبلغ تأثير كل منهما فى إصلاح الأرض فإن ذلك بحث فلسفى طويل متشعب الطرق كثير الفروع. وسنغتنم أول فرصة لإبداءِ رأينا فى هذين المذهبين . إنما غرضنا هنا أن نوجه الأنظار إلى وجوب فصل المبادئ فى الشرق وترتيبها ووضع كل واحد منها فى مرتبته وبابه تسهيلاً للنظر فيها واختيار أفضلها لنا. فضلاً عن أن الخلط بينها دليل على الجهل بها. والجهل بها دليل على انحطاط العلم عندنا وكونه لا يزال فى طفوليته .

أما رواية الكوخ الهندى التى قدَّمنا لها هذه المقدمة فمذهبها أيدياليستى محض. ولنا فى مبادئها نظر سنذكره فى فرصة أخرى.

مقدمة الطبعة الأولى

(ترجمة المؤلف) توفى برناردين دى سان بيير فى أرانى من أعمال فرنسا فى عام ١٨١٤ وولد فى الهافر عام ١٧٣٧ وكان أبوه مديراً لشركات مركبات السفر فى الهافر فنشأ برناردين فى الفقر وتلقى دروسه الابتدائية فى مدرسة لليسوعيين فى كابين وفى مدرسة أخرى فى روبين. وقد أكثر فى صغره فى مطالعة كتاب روبنصن كروزى وكتاب سير القديسين وسافر إلى المرتنيك وكان كثير الجلوس على شاطئ البحر والتأمل فيه وساح سياحات كثيرة مع راهب يدعى «الأخ بولس» فكل هذه الشؤون غرست فيه ميلاً إلى الطبيعة ونفوراً من الناس وحبًا شديداً للرحلات البعيدة. فقام فى نفسه أن يزين لحكومة روسيا إنشاءَ مستعمرات فى شواطئ بحيرة « أورال» فسافر إلى بطرسبرج فعرف فيها المرشال دى مونيخ والجنرال بوسكه والمسيو دى فيلبوى. فمال إليه المرشال واصطنعه. أما الجنرال بوسكه فإنه « قدَّم له يد ابنة أخته » أى اقترح عليه الاقتران بها فاعتذر برناردين لأنه كان فقيراً . وأما المسيو فيلبوى فإنه سعى فجعله ضابطًا فى الجيش الروسى وقربه من الإمبراطورة كاترين الثانية فكان أقرب المقربين إليها فيما قالوا ؛ لأنه

كان صبوح الوجه لطيف المنظر وبعضهم زعم أنه صار عشيقها. ثم أرسلوه في مهمة إلى فينلنده ولما عاد منها أرسلوه إلى بولونيا ولكنه لم يلبث أن سئم الشؤون السياسية السرّية التي كان يمارسها فقفل راجعًا إلى وطنه. فعرض عليه فردريك الكبير ملك بروسيا رتبة ضابط في الجيش البروسي في عودته فأبى برناردين ذلك وعاد إلى باريز فاصطنعه المسيو دي برتويل وأرسله إلى « جزيرة فرنسا » جزيرة موريس اليوم » إحدى المستعمرات الفرنسية يومئذٍ. فبقي في المستعمرة ضابطًا ومهندسًا وهو يبعث من حين إلى حين رسائل الشكوى إلى المسيو دي برتويل حتى سئم منه فتخلى عنه. وبعد مدة عاد إلى باريس فقيراً كما ذهب منها وقد سئم الاستخدام في الحكومة وعزم على « أن يعيش من ثمار بستانه » كما قال أي من شق قلمه. فعكف على الكتابة والتأليف ومنذ هذا الحين دخل في الطريق المستقيمة التي خُلق لسلوكها دون سواها. فألف برناردين كتبًا كثيرة منها سياحة في « جزيرة فرنسا ». وسياحة في رأس الرجاء «الكاب»، واركاديا، ودروس طبيعية وهي أقسام، والطبيعة والأدب، وسياحة في سيليزيا، وموت سقراط، وكلام عن الجرائد، وكلام عن جان جاك روسو، وقصص السفر، وغيرها من الكتب والأسفار المقيدة.

ولما انتشر بين الناس أول هذه الكتب « وهو سياحة في جزيرة فرنسا » أقبل القراءُ من كل جانب عليه وشعر الخاصة والعامة أن هذا

الكاتب قادم إليهم بأسلوب جديد ولهجة جديدة. فقد كانت عبارته رقيقة تكاد تذوب طلاوة وحلاوة وكان له في وصف المناظر الطبيعية والعواطف الأدبية والدينية أسلوب لم يظهر على قلم غير قلمه فانهالت على الكاتب كلمات التنشيط والثناء ومعها المال الكثير؛ لأن تلك من غير هذا قلما تجدى نفعًا. فسعى له رئيس أساقفة أكس فمنحته الحكومة راتبًا قدره ألف فرنك. وعينت له إحدى الجرائد ٦٠٠ فرنك والدوق دورليان ٨٠٠ فرنك وعين له أحد أقلام الحكومة ألف فرنك، أيضًا، وربح من كتبه لأول مرة ٦ آلاف فرنك فاكتفى برناردين الحاجة بهذا المال واستطاع التفرغ للتأليف والكتابة فأنار بقلمه سماءَ فرنسا زمنًا طويلاً وصار الناس يزدحمون على صداقته بقدر ما كانوا يبتعدون عنه قبل شهرته.

ولكن أجمل الكتب التي كتبها كتابان لم نذكرهما الآن بين كتبه. وهما « الكوخ الهندى » الذى نحن فى صدده « وبولس وفرجينى » وقد أصبح اسم برناردين بهذين الكتابين خالداً فى آداب اللغة الفرنسية ومساويًا فى بلاغته ورقته لهوميروس وفرجيل وتاسيت وغيرهم من الكتبة الخالدين .

ولما بلغ برناردين هذا الشأو وكان قد وصل إلى قمة جيله « اطلب تفسير ذلك فى الصفحة ٤٢ » وكان أكتب كتاب زمانه بعد جان جاك روسو الذى كان أستاذه. وقد تزوج برناردين مرتين وأخذ فى كل مرة (دوطة) طائلة مكنته من ابتياع منزل بعيد عن الناس والمعيشة فيه بين الأزهار والأشجار والدفاتر والمحابر براحة وسلام كما عاش صاحب

الكوخ الهندى فى هذا الكتاب. وقد توفيت زوجته الأولى وهى مستاءَة من هذه المعيشة أما زوجته الثانية فإن الانفراد كان منطبقًا على ذوقها فعاشا معًا سعيدين مستترين. ولما توفى برناردين اقترنت زوجته بالكاتب إيمه مارتين المشهور فتولى هذا الكاتب طبع كتب برناردين. وقد طالعنا من كتب (إيمه مارتين) كتاب (تربية أمهات العائلة) فرأيناه فيه يكثر من الاستشهاد ببرناردين يلقبه بالفاضل مرارًا وما كنا ندرى يومئذٍ أنه زوج أرملته .

الكوخ الهندى

الفصل الأول

سفر العلماء إلى أقطار العالم للتفتيش عن الحقائق

انعقد فى لندن منذ زمن بعيد مجمع مؤلف من بعض علمائها للبحث عن الحقائق العلمية والتفتيش فى جميع أقطار العالم عن كل ما من شأنه إنارة عقول البشر وترقية شؤونهم وزيادة راحتهم. وقد انضمَّ إلى هذا المجمع كثيرون من نبلاء الإنكليز وأساقفتهم وتجارهم وبعض أمراءِ الأسرة الإنكليزية المالكة وبضعة من أمراء شمالى أوروبا.

وكان عدد العلماء فى هذا المجتمع عشرين عالمًا. فألقى المجمع إلى كل واحد منهم سفرًا فيه بيان المسائل العلمية التى عزم على إرسالهم إلى أقطار الأرض للبحث عن حل لها وعددها ثلاثة آلاف مسألة. وكانت كلها مع اختلاف موضوعها ملائمة لطبيعة الأقاليم التى تقرَّر البحث فيها ومرتبطة بعضها ببعض أشد ارتباط حتى إذا انحلت إحداها انحلَّ معها ما يتقدمها وما يليها كأنَّ رئيس المجمع الذى أنشأها بمساعدة رفاقه الأعضاء قد شعر بأن القضية قد يتوقف حلها على حلِّ قضية أخرى مرتبطة بها وهلمَّ جرًا.

وكـان الرئيس يرى أن هذا العـمل الذى عـزم المجـمع على عـمله سيكون أعظم الأعمال العلمية التى أقدم الإنسان عليها لأنه يكشف الغطاء عن مجهولات الكون ويجمع شتات الحقائق المتفرقة على ظهر الكرة الأرضية. قال: وإذا نجح هذا العمل العظيم كان أعظم دليل على ضرورة الهيئات الأكاديمية (المجامع العلمية) لجمع الحقائق العلمية من أطراف العالم.

وقد عهد المجمع إلى أولئك العلماء فوق ما تقدم من البحث فى المسائل التى أشرنا إليها أن يبتاعوا فى طريقهم كل ما يجدونه من نسخ التوراة القديمة والكتابات والآثار القديمة. وإذا لم يتمكنوا من ابتياعها فينسخونها أو يستنسخونها. ثم إن زملاءهم اللوردات والأمراء أعطوهم تمهيداً لهذه السبيل رسائل توصية إلى سفراء إنجلترا فى الجهات التى يقصدونها، فضلاً عن الحوالات المالية التى هى أنفع من رسائل التوصية كما لا يخفى.

الفصل الثانى

ماذا وقع لأحدهم وهو أشهرهم؟

وكان أشهر هؤلاء العلماء عالم كبير يعرف اللغة العبرانية والعربية والهندية فسار إلى الهند مهد الفلسفة والفنون ليبحث فيها . فمرَّ أولاً بهولاندة فزار المجمع العبرانى فى أمستردام ومجمع دورديوخت ثم عرَّج على فرنسا فزار كلية السوربون وأكاديميتها.

ومنها قصد إيطاليا فزار كثيراً من الجمعيات والمكاتب والمتاحف منها متحف فلورنسه ومكتبة سان مارك فى البندقية (فينيسيا) ومكتبة الفاتيكان فى رومه. وإذ كان فى رومه خطر له الشخوص منها إلى أسبانيا لزيارة كلية سالمانكه الجامعة ولكن خوفه من ديوان التفتيش أثناه عن عزمه وجعله يؤثر السفر رأسًا إلى تركيا فسار إلى الأستانة ووقف على الكتب الثمينة التى فى جامع أيبيا صوفيا.

ولما قضى وطره من الأستانة قصد مصر وباحث علماءَ الأقباط فيها ثم أتى لبنان وباحث علماء المارونيين ورهبان جبل الكرمل. وبعد

ذلك شخص إلى صنعاءَ فى بلاد العرب ومنها إلى أصفهان فزار قندهار ودلهى وأكرا.

وهكذا صرف فى سياحته ثلاث سنوات وهو يتنقل من مكان إلى مكان ويناظر العلماء فى كل بلاد نزل فيها حتى انتهى إلى ضفاف نهر الكانج إلى يارس التى هى عند الهنود بمنزلة آثينا عند اليونان. أما ما جمعه فى أثناء هذه السياحة من الكتب والنسخ القديمة والكتابات والآثار فى كل فن وعلم فحدث عنه ولا حرج. فإنه جمع مجموعة لم يجمعها أحد قبله وليس لأحد أن يجمعها بعده. وكفى فى وصفها أن يقال : إنها كانت مطوية فى تسعين «رزمة» زنتها ألفان وثلاثمائة وست وثمانون أقة. وكان الدكتور مسروراً بها لأنها جاوزت آمال المجمع الذى بعثه لجمعها .

إلا أن الدكتور جلس ذات يوم يفكر فى سياحته ويقلب « رزم» مجموعته فخطر له خاطر ملأ نفسه حزنًا وانقباضًا؛ ذلك أنه سأل نفسه: « أى أمر عظيم فعلتُ بعد كل ما جمعتُ من الكتب المختلفة والآثار المتباينة ؟ إننى باحثت علماء الديانات اليهودية والبروتستانية والكاثوليكية والأرثوذكسية والإسلامية والأرمنية والفارسية والهندية وذاكرت أكاديميات باريزو كريسكا وأركاد وأربع وعشرين أكاديمية أخرى. ومع ذلك فإنى عجزت عن حل مسألة واحدة من الـ ٢٥٠٠ مسألة التى أرسلتُ للسؤال عنها والبحث فيها.



الدكتور جالس يتأمل ماذا جنى من تعبه وإلى جانبه الآثار التى جمعها

وكانت هذه المسائل مقسومة أقساماً. فمنها ٢٠٠ مسألة فى الديانة العبرانية و ٥٨٠ فى الكنيسة اليونانية والرومانية وفروعهما و٣١٢ فى ديانة البراهمة القديمة و ٥٠٨ فى اللغة السنسكريتية (لغة الهنود المقدسة) و ٣ فى حالة الهنود الاجتماعية الحاضرة و ٢١١ فى التجارة الإنكليزية فى الهند و ٧٢٧ فى الآثار القديمة التى فى جزائر اليفانتا وسالسيته ويومباى و ٥ فى تاريخ العالم وقدمه و ٦٧٣ فى مصدر الند السنجابى وحجر البازورد وأنواعه العديدة وواحدة فى السبب الذى يدفع الأوقيانوس الهندى ستة أشهر إلى الشرق وستة إلى الغرب، وهو الأمر

الذى لا يزال مجهولاً و ٣٧٨ فى مصادر نهر الكانج وفيضانه. وقد عُهد إلى هذا العالم فوق ذلك أن يبحث بحثًا مدققًا فى مصادر نهر النيل(١) وأسباب فيضانه؛ لأن ذلك شغل عقول العلماء قرونًا عديدة. ولكنه لم يكن يلتفت كثيراً إلى هذه المسألة؛ لأنها كانت خارجة عن دائرة أبحاثه الأصلية فضلاً عن أن جعبة العلماءِ كانت قد فرغت فى المناظرة فيها.

فعندما عدَّد العالم الإنكليزى المسائل التى مرَّ ذكرها أخذ يقول فى نفسه: « ماذا استفدت من جميع الآثار التى جمعتها؟ إن هذه الكتب والأسفار والملاحظات تجيب عن المسائل المطلوب حلها أجوبة متناقضة متباينة. فإذا افترضت أنها تجيب عن كل مسألة منها خمسة أجوبة متباينة فقط كان مجموع أجوبة الـ ٢٥٠٠ مسألة ١٧٥٠٠ جواب. وإذا افترضنا أن كل واحد من زملائى التسعة عشر الذين أُرسلوا للبحث مثلى قد جاءُوا بهذا العدد من الأجوبة ترتب على المجمع الملكى المذكور آنفًا أن يحلَّ ثلاثمائة وخمسين ألف مسألة قبل أن يتمكن من تقرير حقيقة واحدة ووضع مبدأ واحد على أساس وطيد ».

إذن فالمجموعة التى جمعها هو ورصفاؤه كانت نتيجتها أبعاد المسائل المطلوب حلها الواحدة عن الأخرى بدلاً من جمعها وتوجيهها كلها إلى مركز Δ واحد ونقطة واحدة وذلك مما يزيد العقول ظلاماً وبعداً

(١) لم تكن منابع النيل اكتشفت فى زمن برناردين دى سان بيير.

عن الحقيقة. وهذا هو الأمر الذى ساءَه وملأ نفسه حزنًا وانقباضًا. فجعل يقول فى نفسه: « ماذا فعلت إذا كنت بعد كل ما عانيت من المشاق والاضطهاد لا أحمل لأبناءِ وطنى فى هذه الرزم الكثيرة سوى وسائل جديدة للشك والارتياب ومواضيع جديدة للمناظرة والخصام ».

الفصل الثالث

طلب الحقيقة فى قصر رأس البراهمة

وقد كان يفكر فى ذلك وهو على أهبة العودة إلى إنكلترا وفى نفسه مرارة الضجر واليأس وإذ بلغه من براهمة بينارس أن رأس البراهمة المقيم فى هيكل « جاكرينا » قادر وحده على حلّ جميع المسائل التى كان يسأل عنها. وكان هذا الهيكل قائمًا على شاطئ أوريكسا بجانب البحر قريبًا من أحد مصاب نهر الكانج.

أما هذا البرهمى فإنه كان كبير البراهمة فى ذلك الزمان وأوسعهم علمًا وأكثرهم شهرة وقد طبق صيته الخافقين؛ فكان الهنود وغير الهنود يفدون عليه من جميع أقاليم الهند وممالك آسيا لاستشارته واستفتائه.

فسافر الدكتور فى الحال إلى كلكتا وقابل مدير الشركة الإنكليزية الهندية(١) وأطلعه على عزمه. فإجلالاً للعلم وللوطن الذى ينتمى الدكتور

(١) كانت الهند يومئذٍ فى يد الشركة الإنكليزية الهندية المشهورة.

إليه قدر المدير هذا الأمر قدره واعداً للدكتور معدات السفر. فخرج الدكتور من كلكتا بحاشية غريبة الأزياءِ. فإنه ركب هودجاً هندياً يحمله



الدكتور جاس في هودج هندى وسائر في ركب هندى لمقابلة رأس البراهمة

ثمانية رجال من أقوياء الهنود على أكتافهم وصحبه رجال آخرون غيرهم؛ واحدٌ منهم لحمل الماء، وثانٍ لحمل الإبريق، وثالث لحمل النارجيلة، ورابع لحمل مظلة تقى الدكتور حر النهار، وخامس لحمل النور فى الظلام وسادس لجمع الحطب وشقه، وطباخان لإصلاح الطعام، وجملان بقانديهما لنقل المؤونة والأثقال، وساعيان لإعلان حضوره، وأربعة فرسان على جياد فارسية لحراسته، ورجل لحمل العلم الإنكليزى فى المقدمة. وكان مدير الشركة عالمًا بعادات الهنود فلم يكن يجهل أنه لا يليق المثول لدى كبرائهم بأيدٍ فارغة؛ ولذلك أعدَّ للدكتور هدية ليرفعها إلى رئيس البراهمة. أما هذه الهدية فكانت تلسكوبًا بديعًا وبساطًا فارسيًا جميلاً جديرًا بأن يُبسط تحت قدمى عظيم البراهمة فضلاً عن أنسجة جميلة لامرأته وثلاث قطع من « التفتا » الصينية الحمراء والبيضاء والصفراء ليجعل منها وشائح لتلامذته. فوضع الدكتور هذه الهدايا فى هودجه ثم سار محمولاً على أكتاف الرجال قاصداً هيكل جاكرينا.

الفصل الرابع

بأى سؤال يبتدئ

وفيما هو سائر على أكتاف رجاله أخذ يقلب سفر المجمع الملكى ويبحث فيه عن المسائل التى يجب أن يستهل بها كلامه مع رئيس البراهمة. فجعل يسأل نفسه قائلاً:

أنستهله بإحدى المسائل المتعلقة بنهر الكانج أم بالمسألة المختصة بالبحر الهندى وتعاقب أمداده إلى الشرق والغرب. فإننا إذا وقفنا على أسباب هذا الامتداد تمكنا من الاستدلال على مصادر الأوقيانوس وحركاته فى جميع أقطار العالم. ولكن الدكتور ما لبث أن عدل عن هذه المسألة؛ لأنها على أهميتها كانت لا تزال فى حيز الإهمال. فرأى أن يسأله أولاً هذا السؤال: « هل كان الطوفان عامًا فى الأرض ؟» فإن هذا الأمر قد أضرم نار الجدال والخصام مرات عديدة. ثم عدل عن هذا وبدا له أن يسأله عما جاءَ فى تقاليد المصريين حسب رواية هيرودوتس من أن الشمس غيرت مجراها مرارًا فكانت تشرق من المغرب وتغرب فى المشرق. ولكنه رأى أن يعدل عن هذا السؤال أيضًا ويختار الاستفهام

منه عن قدَم العالم وتاريخ الخليقة الذى يجهله الهنود منذ عدة ملايين من السنين. ثم جال فى خاطره أن يسأله عن حقوق الإنسان وواجباته وأحسن الحكومات وأفضلها لسياسة الشعوب. إلا أن هذه المسائل لم تكن من ضمن مسائل الجمع[١].

وبينما هو يجيل هذه المسائل كلها فى خاطره استوى بغتة جالساً فى الهودج وألقى الكتاب من يده وقال فى نفسه : لا هذه ولا تلك . بل أستهل كلامى مع رئيس البراهمة بسؤاله عن « الحقيقة » وأين نجدها وما هو الطريق إليها؟ فإنَّ حلَّ هذه المسألة بمنزلة حلّ جميع المسائل التى لدى. أجل أينُ نجد الحقيقة وما هو الطريق إليها؟ فإن قيل: إننا نجدها فى الكتب قلت: إن جميع الكتب متناقضة متباينة. وإن قيل: إن العقل يوصلنا إليها ويعرفنا بها أجبت أن العقل يختلف فى البشر باختلاف أذواقهم وتربيتهم وأخلاقهم ومصالحهم. فإذا أجابنى رئيس البراهمة وحلّ مسألتى أصبحتُ قابضًا على مفتاح الحقائق الأدبية والعلمية كلها فأفتح بها حينئذ أقفال المسائل التى معى وأعيش بمبادئها مع الناس براحة وسلام.

(١) يرد المؤلف بهذا القول التهكم والاستخفاف؛ لأن هذه المسألة أهم مسائل الكون ومع ذلك لم تُذكر فى مجموعة الأسئلة . فكأنه يقول : إنهم اهتموا بالمسائل الصغرى وتركوا الكبرى.

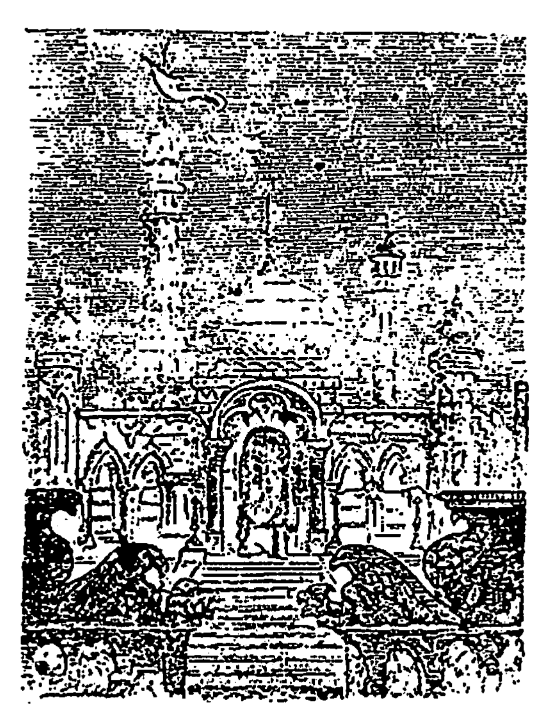
الفصل الخامس

الوصول إلى هيكل جاكرينا

وبعد مسير الدكتور عشرة أيام بلغ خليج بنغال فكان يلقى الناس في طريقه أفواجًا أفواجًا عائدين من هيكل جاكرينا وكلهم ألسنة ناطقة بفضل رأس البراهمة الذى تشرفوا بمقابلته لاستفتائه واستشارته فأدهشهم بسموّ مداركه وسعة معارفه.

ولما طلع صباح اليوم الحادى عشر ظهر للدكتور هيكل جاكرينا القائم على شاطئ البحر وبدت له جدرانه الحمراء الضخمة وأروقته وقبابه وأبراجه الصغيرة المصنوعة من الرخام الأبيض.

وكان هذا الهيكل قائمًا فى ملتقى تسعة طرق كبرى على جوانبها صفوف الأشجار الظليلة الدائمة الخضرة. وكان كل واحد من هذه الطرق يؤدى إلى واحدة من الممالك التالية : سيلان وخلقند وبلاد العرب والفرس وثيبة والصين وآفا وسيام وجزائر البحر الهندى. وكل واحد منها مغروس بنوع من الشجر.



هيكل جاكرينا مقام رأس البراهمة - الدكتور والبرهمى البواب أمام الباب

فأحدها مغروس بالنخيل الهندى والثانى بالنارجيل والثالث بالعنباء والرابع بالكافور والخامس بالخيزران والسادس بالموز والسابع بالصندل والثامن بشجر التك والتاسع بشجر اللاتانية. وكان وصول الدكتور إلى الهيكل من الطريق المغروس بالخيزران وهو الذى يجاور الكانج والجزائر .

والخميلة المنبسطة عند مصبه. ولما بلغ الهيكل وتأمل فيه عن قرب عرته دهشة مما شاهده فى بنيانه من الضخامة والفخامة. فقد كانت أبوابه البرونزية تتألق فى أشعة الشمس تألق البلور والنسور حائمة حول قبابه الشاهقة التى كانت تناطح السحاب وتتوارى فى العنان. وكان محاطًا بأحواض كبرى من الرخام الأبيض تنعكس على مائها الصافى صورة قبابه وأروقته وأبوابه. وحول ذلك كله فناءٌ متسع وحدائق فسيحة فيها كثير من الأبنية يسكنها البراهمة القائمون بخدمة الهيكل.

ولما دنا الدكتور من أبواب الهيكل تقدمه سعاته ركضًا لإعلان قدومه. فما دخل هؤلاء حتى خرجت من إحدى الحدائق بعض العذارى الهنديات ممن وظيفتهنَّ الرقص والغناءُ أمام الهياكل واستقبال الزائرين فأسرعنَ لملاقاة الدكتور بالغناء والرقص وفى أعناقهن وخصورهنّ عقود وأكاليل من زهر طيب الرائحة. فسار الدكتور مع رجاله بينهنّ وهنَّ راقصات منشدات تنبعث منهنّ الروائح العطرة.

ولما دخل الدكتور إلى فناءِ الهيكل ألقى نظرة من الباب إلى الداخل فرأى فى صدر المكان على نور المصابيح الفضية والذهبية الموقدة فيه تمثال «جاكرين» بشكل هرم ولا يد له ولا رجل؛ لأنه فقدهما يوم أراد حمل العالم ليخلصه .. أما جاكرينا هذا فإنه المخلوق الذى تجسد فيه برهما للمرة السابعة. وكان على قدمى التمثال كثيرون من الهنود جاثون أمامه برهبة وخشوع ووجوههم لاصقة بالأرض وهم يستغفرون جاكرينا

ويسألونه أن يرضى عنهم . وكان بعضهم ينذر أن يعلق نفسه من كتفيه وراء مركبته في يوم الاحتفال الذى يُحتفل به إكراماً لعيده وبعضهم ينذر أن يلقى بنفسه تحت عجلاتها ترضياً له.

فقام في نفس الدكتور أنفة واشمئزاز من تلك النذور والمناظر فصرف وجهه عنها وهمَّ بالدخول إلى الهيكل. فاعترضه برهمي شيخ كان يحرس الباب وسأله عن الأمر الذى جاءَ من أجله فأبلغه الدكتور ذلك فقال له البرهمي: إنه لا يجوز له المثول بين يدى «جاكرينا» أو كاهنه الأعظم ما لم يُغسل ثلاثًا في أحد مغاسل الهيكل وينزع عنه كل ما ما كان عليه من أثر الحيوان خصوصًا البقر والخنزير؛ لأن البراهمة يعبدون الأول ويكرهون الثاني.

فأجابه الدكتور:

« وما الحيلة إذًا بالهدية التى جئت بها إلى رأس البراهمة فإن فيها بساطًا فارسيًا مصنوعًا من شعر ماعز أنقره ونسيجًا من الحرير».

فأجابه البرهمي: « إن كل ما يقدم إلى هيكل جاكرينا أو إلى كاهنه الأعظم يطهر من نفسه إذًا كان نجسًا ».

فاضطر الدكتور إلى خلع ملابسه وحذائه؛ لأن الملابس مصنوعة من الصوف والحذاء من جلد الماعز، ثم خلع قبعته؛ لأنها مصنوعة من جلد كلب الماء، وبعد ذلك أخذوه إلى أحد مغاسل الهيكل فغسلوه فيه

ثلاث مرات ثم جاءه البرهمى بغطاء قطنى كبير فالتف به وسار فى أثر البرهمى إلى باب القاعة الكبرى التى هى مقام رأس البراهمة.

ولكنه لما وصل إلى الباب رآه البرهمى يتأبط كتابًا وهو السفْر الذى يحتوى على مسائل المجمع الملكى فسأله عن المادة التى صنع منها غلاف هذا الكتاب فأجاب الدكتور أنها من جلد العجل. فاستشاط البرهمى غيظًا وصاح بالدكتور:

« أما أخبرتك أن البقر من معبودات البراهمة فكيف تقدم على مقابلة كبيرهم وفى يدك كتاب مغلف بجلد معبوده. يجب عليك الآن أن تُغسل ثلاثًا أيضًا فإنك أصبحت نجسًا بمسك هذا الجلد».

ولكن الدكتور كان من حسن الحظ حكيمًا وممن يحسنون التخلص. فذهب إلى ملابسه ثم عاد ووضع فى يد البرهمى قطعًا من النقود فلزم البرهمى الصمت كأن المال ماءُ الكانج يطهّر من كل رجس. ثم إنه ألقى ذلك الكتاب فى محمله وقال فى نفسه : لست بحاجة إلى هذا الكتاب إذ حسبى أن أسأل عظيم البراهمة هذه المسائل الثلاث:

- ما هو الطريق إلى الحقيقة؟
- أين نجد الحقيقة؟
- هل يجب أن نقول الحقيقة للناس دومًا؟

قال ذلك ثم دخل فى أثر البرهمى إلى قاعة رئيس البراهمة وهو مكشوف الرأس عارى القدمين لا يستر جسده إلا الغطاءُ القطنى الذى ذكرناه أنفًا .

الفصل السادس

فى قاعة رأس البراهمة

ولما دخل الدكتور الإنجليزى إلى مستقر رأس البراهمة أخذ يتأمل فى المكان فوجده قاعة متسعة سماؤها قائمة على أعمدة ضخمة من خشب الصندل وأرضها مفروشة ببسط دقيقة طول الواحد منها سبعة أقدام فى سبعة عرضًا. وكان فى صدر القاعة دكة عالية محاطة بدرابزون من خشب الأبنوس وفوق الدكة رأس البراهمة الجليل بلحية بيضاء وثلاثة خيوط قطنية حسب عادة البراهمة. وكان جالسًا على بساط أصفر اللون وهو جامد كالصنم لا يتحرك منه عضو حتى عيناه وحوله تلامذته بعضهم يطرد الذباب عنه بمذبات مصنوعة من أذناب الطاوس وبعضهم يحرق عود الند فى مجامر من الفضة والياقوت والبعض يوقعون على السنطير أنغامًا شجية. وكان حول دكة الرئيس صفوف من الزهاد والعلماء والدراويش وفى جملتهم بعض تلامذته وكلهم بأذرع مطوية على صدورهم مطرقون إلى الأرض هيبةً وإجلالاً .

فهمّ الدكتور بأن يتقدم إلى دكة رأس البراهمة قياماً بواجب التحية والسلام فمنعه البرهمى من ذلك وأوقفه عند البساط التاسع، إذ لا يجوز لأكابر الهنود أن يتجاوزوا هذا الحد. أما الحكام فإنهم يصلون إلى البساط السادس والأمراء أبناءُ الملك إلى البساط الثالث. وليس لأحد شرف الوصول إلى رأس البراهمة لتقبيل قدميه تبركًا بذلك غير ملك الهند وحده .

فما أحمق الإنسان وأجهله! أليس غريبًا أن البشر يصل بعضهم إلى هذا الترفع والتجبر وبعضهم إلى هذا الخوف والجبن .

وكان الدكتور قد أمر رجاله بأن يضعوا عند مدخل القاعة الهدايا التى جاءَ بها إلى رئيس البراهمة فأخذها البراهمة إلى رئيسهم فألقى عليهما الرئيس نظرة لا تدل على استحسان ولا استهجان ثم نقلوها إلى داخل القصر.

أما الدكتور فإنه لما وقف عند البساط التاسع أراد أن يستهلّ كلامه بخطبة أنيقة باللغة الهندية؛ لأنه كان يعرفها فأشار إليه البرهمى بالصمت حتى يخاطبه رأس البراهمة فصمت وجلس متضجراً من كل هذه الترتيبات المتعبة. ولكنه تسلًى بأن قال فى نفسه: « يهون علىّ كل تعب فى سبيل الحقيقة والبحث عنها».

الفصل السابع

إلقاء الأسئلة الثلاثة

ولما دخل الدكتور سكتت أصوات الموسيقى وساد فى القاعة سكوت تام فسأل حينئذٍ رأس البراهمة الدكتور هذا السؤال:

« ما جاءَ بك إلى الهند؟ ».

غير أن الرئيس لم يخاطب الدكتور مباشرة بل ألقى هذا السؤال إلى درويش وهذا الدرويش ألقاه إلى درويش ثانٍ فألقاه هذا الثانى إلى درويش ثالث وهذا أوصله إلى الدكتور .

فأجاب الدكتور باللغة الهندية الفصحى:

إنما جئت هيكل جاكرينا لأشاهد كاهنه الأعظم الذى اشتهر بعلمه وحكمته واستفتيه فى بعض المسائل العلمية والفلسفية التى أعيانا حلها .

وكانت جميع الأبصار حينئذٍ شاخصة إلى الدكتور فلما أتم كلامه انتقلت إلى رأس البراهمة.

وبعد برهة سأل رأس البراهمة الدكتور بالطريقة الأولى: قل ما هى المسائل التى ترغب فى حلها؟

فأجاب الدكتور على الفور أن المسألة الأولى هى:

- ما الطريقة التى يتوصل بها الإنسان إلى معرفة الحقيقة؟ فتأمل الكاهن الأعظم برهة ثم أجاب:

إن الحقيقة لا تُعرف إلا بواسطة البراهمة.

فانحنى جميع من فى المجلس إعجابًا بحكمة رئيسهم العظيم.

أما الدكتور فساءَه هذا الجواب؟ لأنه كان يتوقع جوابًا أحسن منه ولكنه كظم ما فى نفسه وسأل السؤَال الثانى وهو :

- أين نجد الحقيقة فى هذا العالم؟

فشخصت جميع الأبصار إلى فم الرئيس تنتظر جوابه الباهر.

فلم يلبث رأس البراهمة أن أجاب:

إن الخالق وضع الحقائق كلها فى الكتب الأربعة الهندية المقدسة. وقد كُتبت هذه الكتب باللغة السنسكريتية منذ ١٢٠ ألف سنة. ولا يقف أحد على هذه الكتب ولا يفهم أسرارها إلا البراهمة.

فدوت هنا القاعة من تصفيق الجالسين وأخذتهم هزة الطرب إعجابًا بهذا الجواب السديد.

أما الدكتور فلا تسل عن حنقه وغيظه. ولكنه تجلد ليرى النهاية وأجاب بشيء من النزق والحدة:

إن كان الخالق قد وضع الحقائق في كتبه خصوصية لا يقف عليها إلا البراهمة ولا يفهمها أحد غيرهم؛ فذلك يدل على أن الخالق يخفى الحقيقة عن الذين ليسوا ببراهمة ولم يسمعوا بهم قط فهو بالتالى يمنعهم من معرفتنا وهذا ظلم محض.

فأجاب الرئيس: هكذا أراد برهما وليس للبشر الاعتراض على إرادته .

فازداد الحاضرون تحمسًا وتصفيقًا.

فسأله الدكتور عند ذلك سؤاله الثالث وهو:

– هل يجب أن نقول الحقيقة للناس دومًا؟

فأجاب الرئيس :

من الصواب أحيانًا أن نخفى الحقيقة عن جميع الناس. ولكن لا يجوز البتة إخفاؤها عن البراهمة.

فلم يتمالك الدكتور أن استشاط عند ذلك غضبًا فصاح:

لماذا نُكره الناس على أن يقولوا الحقيقة للبراهمة إذا كان البراهمة لا يقولونها لأحد ولا ينفعون بها أحدًا. ألا يكون ذلك ظلمًا من البراهمة؟!

ولكن ما لفظ الدكتور هذا الكلام حتى علت ضوضاءُ الحاضرين. فإنهم سمعوا الدكتور يعزو الظلم إلى الله فسكتوا عنه ولكنهم لم يسكتوا عند نسبته الظلم إليهم. فقام الزهاد والعلماءُ والدراويش والبراهمة والتلامذة قومة واحدة لمناظرة الدكتور ومقاومته. فنهض حينئذٍ الرئيس وصفق بيديه قائلاً بصوت سمعه الجميع: «إن البراهمة لا يناظرون علماءَ الأفرنج» ثم نزل من مكانه وخرج من القاعة.



الدكتور يعترض على رأس البراهمة وهياج البراهمة عليه.

فازداد القوم بعد خروجه صراخًا وهياجًا وكادوا يؤذون الدكتور لولا معرفتهم بقوة الإنجليز ونفوذهم فى الهند . فخرج الدكتور من القاعة غاضبًا متضجراً فقال له البرهمى الذى أدخله إلى القاعة:

« لو لم تُغضب الكاهن الأعظم لقدم لك الشراب والطيب حسب العادة فلماذا أغضبته ؟».

فأجاب الدكتور : بماذا أغضبته؟

فقال البرهمي: أغضبته باعتراضك على كلامه ألا تعلم بأنه حكيم الهند وعظيمها وأن كل كلمة من كلماته حكمة باهرة لا تفهمها العقول البشرية.

فهزّ الدكتور رأسه وخرج إلى ثيابه وهو يقول : قد عرفت ذلك الآن ولكن ياالضيعة التعب الذى عانيته فى الوصول إلى هذا المكان.

ثم أسرع إلى ملابسه فنزع الغطاء القطنى ولبسها وخرج يطلب رجاله.

الفصل الثامن

الزوابع الشديدة في الهند

وكانت الغيوم حينئذٍ متلبدة في السماءِ والجو ينذر بالمطر والليل يرخي سدائله. فاستأذن الدكتور في المبيت في إحدى غرف الهيكل فلم يؤذن له؛ لأنه كان «إفرنجيًا» أي نجسًا. فطلب ماءً ليروي به ظمأً ناله من التحمس والهياج فجاؤوه بإبريق فيه ماءً فشرب الدكتور منه ثم ناوله للبرهمي فألقاه البرهمي على الأرض وكسره؛ لأنه صار نجسًا من فم «الإفرنجي»[١] فاستشاط حينئذٍ الدكتور غضبًا فسار إلى هودجه وجلس فيه ثم أمر رجاله بالمسير في الحال فعادوا به من حيث أتوا قرب هبوط الظلام.

وبينما كان الدكتور في هودجه فوق أكتافهم جعل يتأمل في المشاق التي عاناها للوصول إلى هذا المكان وما كان من خيبة أمله. وأخذ يقول

(١) هنا يصف المؤلف عادات الهنود في ذلك الزمان أما اليوم فقد ارتقى أهل الهند ارتقاءً عظيمًا وضعفت عندهم هذه الأوهام كما ضعفت في كل بلاد غير بلادهم.

فى نفسه: لقد صدق ما جاءَ فى المثل الهندى: « إن كل أوروبى يقصد الهند يتعلم الصبر إذا كان غير صبور ويفقد صبره إذا كان صبوراً » فها أنا قد عيل صبرى . لقد تعبت فى التفتيش عن الحقيقة سدى. فما هذا الشقاءُ البشرى. أقضى على الحقيقة أن تبقى مجهولة من الناس وعلى الناس أن يبقوا تائهين فى وهاد الجهل والغباوة؟

وفيما هو يتأمل فى هذا الموضوع والليل قد أرخى سدائله هبَّ بغتة إعصارٌ شديد يسميه الهنود «طوفانًا» فكانت الريح تهب من جهة البحر على مياه نهر الكانج فتقذفها على الجزائر التى عند مصبه ثم تثير من شواطئها الرمل والتراب وترفع من غاباتها أوراق الأشجار إلى عنان السماء. وكانت الزوبعة تصدم الأشجار الضخمة المغروسة فى جانبى الطريق فتعبث بها كما تعبث الريح الخفيفة الاعتيادية بالأعشاب وتحطم أغصانها وتلقيها فى وسط الطريق. وفضلاً عن ذلك فإن نهر الكانج أخذ بالفيضان بعد هبوب الزوبعة وصار المطر يهطل غزيراً .

فخاف الدكتور أن تؤْذيهم تلك الأشجار بالتوائها وانقصاف أغصانها وأن يغرقهم نهر الكانج بفيضانه فأمر رجاله بالخروج من الطريق والسير فى الحقول نحو الربى والآكام المجاورة. فسار رجال الدكتور به فى الجهة التى أشار إليها ثلاث ساعات على غير هدى تحت جنح الظلام.

وبينما هم فى هذه الحال وإذا بوميض برق شق كبد السماءِ وأنار الأفق فرأوا على نوره إلى يمينهم هيكل جاكرينا وجزائر الكانج يتلوها

بحر عجاج متلاطم بالأمواج وأمامهم واديًا صغيرًا بين أكمتين وفيه حرش صغير قريب منهم. فأسرعوا إلى هذا الحرش ليدخلوه فوجدوا نباتات وشجيرات تسد الطريق لالتفافها على أشجار الحرش. فتناول الفرسان سيوفهم وفتحوا بها طريقًا فدخل الجميع تحت الأشجار الضخمة وهم يحسبون أنهم أصبحوا فى ماء من الفيضان والمطر والزوبعة. ولكنهم لم يتنفسوا الصعداءَ برهة حتى دهمتهم السيول من كل جانب تنصب فى تلك الوادى؛ لأن المطر كان غزيرًا.

فعاودهم القلق والخوف وجعلوا يضربون أخماسًا لأسداس. وبعد برهة حانت من أحدهم التفاتة فأبصر من خلال الأشجار بصيص نور بعيد فأسرع حامل المصباح إلى مكان النور ليوقد مصباحه. غير أنه لم يغب بضع دقائق حتى عاد ركضًا وهو يلهث ويصيح بكل قواه: « ابعدوا ابعدوا ففى هذا المكان خارجى ».

الفصل التاسع

رجل بلا ذمة ولا دين

فأسرع الدكتور إلى مسدسه وهو يظن أن هناك وحشًا ضاريًا ثم سأل الرجل : «ما هذا الخارجي؟».

فأجاب الرجل وهو يلهث تعبًا وخوفًا: « هو رجل بلا ذمة ولا دين ».

فقال رئيس الفرسان للدكتور: « إن الخارجي هندى من أدنى الطوائف وشريعتنا تحلل لنا قتله إذا لمسنا. وإذا جالسناه حُرمنا نعمة الدخول إلى أحد هياكل الأقمار التسعة ووجب علينا أن نطهر أنفسنا استحمامًا بماءِ الكانج تسع مرات وأن يدهننا البراهمة ببول البقر تسع مرات من الفرق إلى القدم ».

فصرخ جميع رجال الدكتور - وكلهم من الهنود كما تقدم - : « لا نجالس خارجيًا ولا ندخل مكان خارجى ».

فسأل الدكتور حاما. النور: « ومن أين علمت أن الرجل خارجى أى بلا ذمة ولا دين كما زعمت ؟» فأجاب الرجل : « علمت ذلك من أننى لما

فتحت باب كوخه رأيته جالسًا بجانب كلبه وهو يقدم الماء لامرأته فى قرن البقر. ولا يخفى عليك أن الكلب دنس والبقر من معبوداتنا».

فصاح الجميع مرة ثانية : « تبًا له فإننا نكره رؤيته ».

فنظر إليهم الدكتور باسمًا ثم قال: « أقيموا أنتم هنا إن أردتم. أما أنا فلا يمنعنى شىءٌ من اتقاءِ خطر الزوابع والسيول فعندى جميع طوائف الهنود سواء».

قال ذلك ثم تأبط كتابه وكيسًا وضع فيه أمتعته ومسدسه وغليونه ثم تركهم وسار نحو مكان الخارجى مستهديًا ببصيص النور الذى انبعث منه.

الفصل العاشر

إنسان عائش فى الطبيعة عيشًا أهنأ من عيش المدن وهو أرقى وأفضل من أنامها

وما زال الدكتور سائرًا فى الظلام نحو النور حتى انتهى إلى كوخ قائم تحت شجرة عظيمة فدنا من الباب وقرعه متلطفًا. ففتح له الباب رجل لطيف الهيئة ولما نظر هذا الرجل للدكتور تنحى عن الباب وقال بأدب:

« عفوًا يا سيدى فأنا خارجى لا أستحق أن تشرِّف بيتى. أما إذا كنت تطلب الاحتماء من الزوبعة فأهلاً بك وسهلاً ».

فدهش الدكتور من هذه اللهجة وأجابه باللغة الهندية التى كان يعرفها كما تقدم:

« شكرًا لك يا أخى وأنا أقبل دعوتك بابتهاج وسرور ».

ثم دخل الدكتور مستأنسًا بالنور بعد الظلام وبالاجْتماع بعد الوحدة. فرأى كل ما فى داخل الكوخ بسيطًا نظيفًا مرتبًا وأبصر فى إحدى زواياه امرأة خاشعة الطرف تهز بلطف سرير ولدها.



الخارجى يُدخل الدكتور إلى كوخه وهو الكوخ الهندى الذى عليه مدار الكلام

وما دخل الدكتور بيت الخارجي حتى خرج الخارجي فاحتمل حطبًا كثيراً وتناول سلة الموز والنارجيل ثم خرج يفتش عن رجال الدكتور. ولما اهتدى إليهم وضع الحطب والسلة بعيداً منهم وخاطبهم عن بعد قائلاً:

« بما أنكم لا تتنازلون للدخول إلى كوخي فأذنوا لي بأن أقدم لكم ما تسدون به حاجتكم. فلا ريب أنكم في جوع وأن المطر قد بلل ثيابكم فخذوا هذه ثمار مغلقة لم تمسها يد فأخرجوها وكلوا منها وهذا حطب أضرموه تجفيفًا لملابسكم وإبعاداً للنمور عنكم. وليكن الله حارسًا لكم ».

ثم عاد الخارجي إلى الكوخ مسرعًا فمد بساطًا ووضع عليه شيئًا من العنباءِ والبطاطا المشوية والموز المشوى وقدراً من الأرز المطبوخ بالسكر وحليب النارجيل. ثم دعا الدكتور إلى هذا الطعام الطبيعى البسيط بقوله:

لا بد أنك علمت يا سيدى أننى خارجي لا أستحق أن أدنو من أحد أو أن يدنو منى أحد غير أنى أرى فى ملابسك ما يدلنى على أنك لست هنديًا، فإذا رأيت أن تتنازل إلى تناول ما أعده لك خادمك الحقير أوليتنى نعمة وجميلاً.

فوقعت هذه اللهجة فى نفس الدكتور أجمل وقع فنهض إلى بساط الطعام مسروراً، وأما الخارجي فتنحى مع امرأته وولده فى إحدى زوايا الكوخ؛ فساءَ ذلك الدكتور والتفت إليه قائلاً:

لماذا لم تجلس معى على الطعام؟ أنت أفضل منى أيها الرجل؛ لأنى رأيتك تحسن إلى من يسىءُ إليك (يعنى بذلك تقديمه الطعام والحطب إلى رجاله) فإذا لم تجالسنى على هذا الطعام حسبتُ أنك تظننى شريرًا كأولئك الرجال وحينئذٍ أترك الكوخ عائدًا من حيث أتيت ولو أغرقنى السيل وأكلتنى الوحوش.

فنهض الخارجى وجلس بجانب الدكتور وأخذ يأكل معه فأكل الدكتور مسرورًا؛ لأنه وجد ملجأً من الزوبعة والمطر. وكان الكوخ مبنيًا فى أضيق مكان فى الوادى تحت دوحة من التين الهندى وهى شجرة ضخمة ذات ورق كثيف عريض لا ينفذه ماءُ المطر. وكانت الزوبعة فى الخارج تزأر زئيرًا شديدًا تمازجه صعقات رعد هائلة والريح تهب هبوبًا شديدًا يكاد يقتلع الأشجار من أصولها. ومع ذلك فقد كان كل ما فى داخل الكوخ هادئًا ساكنًا حتى نور السراج ودخانه.

فراق الدكتور هذا السكون السائد حول الهندى وامرأته وسط هياج الطبيعة وعناصره. وكانت المرأة جالسة قريبًا من سرير ولدها تهز سريره بقدمها وتصنع له بيديها طوقًا من الزهر لتزينه به.

وكان الرجل ينظر إليها وإلى ولده الحين بعد الحين بعين طافحة حبًا وحنوًا وعلى وجهه لوائح الدعة والبساطة وفراغ البال وراحة الضمير .

فكانً كل ما فى ذلك الكوخ المنفرد فى البرية وسط الطبيعة الثائرة الهائجة كان مستريحًا هادئًا حتى كلب الكوخ وهره اللذين كانا نائمين بجانب موقد النار الواحد بقرب الآخر. وكان الكلب يفتح من حين إلى حين عينيه ويتنهد كلما وقع نظره على سيده.

الفصل الحادى عشر

بعد الطعام الكلام

ولما فرغ الدكتور من تناول الطعام أتاه الهندى بنار لإشعال غليونه وأشار إلى امرأته فجاءت بسلتين من النارجيل وإناء مملوء شراباً مصنوعاً من الماء والعرق وعصير الليمون الحامض وماءِ قصب السكر فتناول الدكتور شيئًا منه ثم جلسا للحديث فقال الدكتور:

« لقد أعجبنى أيها الأخ عيشك الساذج فى هذه الأرض القفراءِ وسط هذه الغابة الكثيفة. وكأنى أقرأ على جبينك ما أنت فيه من خلو البال وراحة الضمير. غير أنى أسألك: ألا تخاف الزوابع والصواعق فى هذا المكان المنفرد؟ فإن كوخك لا يقيه منها غير هذه الشجرة والأشجار تجتذب الصواعق كما تعلم ».

فأجاب الهندى : إن الصاعقة لا تقع البتة على شجرة التين الهندى.

فقال الدكتور مستغربًا: هذا أمر كنت أجهله وإنى أشكرك لهذه الفائدة، ولكن ما السبب فى ذلك؟ هل إن لشجرة التين الهندى كهربائية سلبية كشجرة الغار؟

فقال الهندى: لا أفهم معنى كلامك يا سيدى. وإنما امرأتى تقول: إن السبب فى ذلك أن برهما تفيأ ظلها يومًا من الأيام فخصها بهذه المزية. وأما أنا فإنى أرى أن الخالق الذى خصها بورق كبير غليظ لا ينفذه المطر وقاية للبشر الذين يلجأون إليها فى هذه الأقطار الشديدة الأمطار رأى أن يتم نعمته عليهم فخصها بمزية الوقاية من الصواعق كما خصها بمزية الوقاية من المطر.

فقال الدكتور معجبًا: ما أسمى كلامك وأعظم ثقتك بالعناية الإلهية. وكأنى علمت من جوابك أمرًا كنت أجهله وهو أن ثقتك بالله هى التى جعلتك مستريح الخاطر ناعم البال فى هذه الوحدة. فقل لى: ما هو مذهبك فقد راجعتُ فى كتاب معى أسماءَ جميع طوائف الهنود فلم أجد فيه ذكرًا لطائفة (الخارجيين) فمن أية طائفة أنت؟ وأين وطنك؟ وفى أى إقليم معبدك؟

فأجاب الهندى بشىء من الرزانة:

وطنى هذا العالم الفسيح . ومعبدى هذه الطبيعة الواسعة. فإنى كلما أشرقت الشمس وقفتُ أمامها فى وسط الطبيعة أسبح خالقها.

وكلما غربتْ شيعتها بنظرى وحمدى الله عدد النعم التى منحنى إياها ولا همَّ لى فى معيشتى هذه غير خدمة امرأتى وولدى والعناية بكل ما هو لى حتى كلبى وهرِّى. وأنا كما ترانى مسرور بمعيشتى فى وسط الطبيعة سرور الولد فى حضن أمه أو العصفور فى عشه. ومتى حان أجلى غداً استقبلتُ الموت باسماً، لأنى لا أعدّه شراً ولا ألمًا أنتظره الآن كما أنتظر نوماً لطيفاً فى آخر النهار.

فأخذ العجب من الدكتور كل مأخذ لهذا الجواب البديع فسأل الهندى :

وأى كتاب أرشدك إلى هذه المبادئ الجميلة؟

فأجاب الهندى: كتاب الطبيعة يا سيدى.

فقال الدكتور: لا ريب أنه كتاب عظيم ولكن من علمك القراءة فى هذا الكتاب؟

فأجاب الهندى: المصائب يا سيدى؛ فإنى ولدت فى طائفة يسميها الهنود خارجية؛ لأنهم يعتبرونها خارجة عن طوائفهم المعروفة ولذلك يقولون: إنها نجسة رجسة ولا يقربونها. فلما شببت وجدت نفسى عاجزاً عن أن أكون هندياً ديناً ووطناً؛ فعزمت على أن أكون إنساناً فلجأتُ إلى الطبيعة لأعيش فيها حراً مستقلاً بعيداً عن ظلم إخوانى بنى الإنسان .

فقال الدكتور: وما هى الكتب التى تستعين بها على قطع وقتك فى هذه الوحدة.

فأجاب الهندى باسمًا: لا أعرف القراءة ولا الكتابة يا سيدى.

فهزَّ حينئذ الدكتور رأسه وقال له: قد كفيتَ نفسك شكوكًا كثيرة. أما أنا فإنى مرسَل من إنكلترا لجمع الكتب والأوراق بحثًا عن الحقائق وسعيًا وراءَ ما يرفع شأن البشر ويزيد راحتهم. وقد عانيت فى هذه السبيل كثيرًا من المشاقّ والأتعاب وفى اعتقادى أن تعبى قد ذهب سدى؛ لأننى بعد ما وجدته من اختلاف البشر صرتُ أرى السعى وراءَ الحقيقة عبثًا ولهوًا بل حماقة وجنونًا ؛ إذهب أننا وجدنا الحقيقة التى تفتش عنها فمن يقبلها ويسمعها دون أن ينقلب علينا؟

فأجاب الهندى: إنى وإن كنتُ على ما تعلم من الجهل يا سيدى إلا أننى أستأذنك فى إبداء رأيى. إنى أعتقد أن الإنسان محتاج إلى معرفة الحقيقة لذاتها، لا لأمر آخر؛ إذ على الحقيقة يتوقف عناء الإنسان وسعادته وبدونها لا يكون الإنسان إلا وحشًا طماعًا جاهلاً فاسد الأخلاق متعلقًا بالأوهام والترهات تبعًا لأغراض الذين يتولون تربيته. فالبحث عن الحقيقة من واجبات الإنسان ومعرفتها حق له.

الفصل الثانى عشر

خارجى أعظم من رأس البراهمة
جواب الأسئلة الثلاثة

وكان الدكتور لا يزال يفكر فى المسائل الثلاث التى ألقاها على رأس البراهمة، فلما رأى أجوبة الهندى السديدة وآراءه الصائبة خطر له أن يلقيها عليه أيضاً ليرى رأيه فيها فقال له:

قلتَ : أن الإنسان محتاج إلى معرفة الحقيقة لذاتها لا لأمر آخر وأنه يكون بدونها وحشًا لا إنسانًا فهل لك أن تدلنى على الطريق الموصل إلى الحقيقة . ولا تَقل: إن الحواس هى الطريق إليها؛ فإن الحواس تكذب وتخدع. ولا تُقل: العقل فإنى لا أرى العقل إلا صورة المصالح الشخصية؛ ولذلك ترى هذا الخلاف العظيم بين البشر. انظر إلى العالم هل ترى فيه أمتين بل قبيلتين بل طائفتين بل عائلتين بل رجلين آراؤهما متشابهة! فإن لم يكن العقل هو الطريق إلى الحقيقة فما هو الطريق إذاً؟

فأجاب الهندى: « إن العقل يخدعنا دوماً كما ذكرت؛ ولذلك لا يصح أن يكون الطريق إلى الحقيقة. وإنما الطريق إلى الحقيقة والمرشد الأمين إليها هو القلب الساذج السليم».

فأجاب الدكتور: « قد تكون مصيباً فى قولك أيها الأخ وكأننى فهمت الآن من كلمتك هذه سبب اختلاف أفكار الناس وتباين آرائهم. فهم يتفقون شعوراً ولكنهم يختلفون حكماً . فإن مبادئ الحقيقة تدخل إلى نفوسهم فيشعرون بها جميعًا ولكن كل واحد منهم يستنتج ويحكم طبقًا لمصلحته وهواه. فالمضلُّ هنا هو العقل لا القلب.

فإذا كان القلب ساذجًا نقيًا سليماً كما ذكرت شعر بالحقيقة وحكم بما تمليه عليه دون أن يؤَثر فيه مؤَثر غيرها . أليس هذا معنى كلامك؟».

فقال الهندى: لقد شرحتَ فكرى شرحًا لا أقدر عليه. ولكنى أشبِّه لك تشبيهًا يُعرب عما فى ضميرى: إن الحقيقة كندى السماءِ، ولا يبقى الندى نقيًا إلا إذا وُضع فى إناءٍ نقى.

فصاح الدكتور مدهوشًا: أحسنت أحسنت. نعم إن الحقيقة كندى السماءِ ولذلك لا تبقى نقية إلا إذا حُفظت فى قلب نقى. ولكن قل لى: أين نجد الحقيقة؟ أفى مكاتب العلم أم فى صدور الناس؟ لقد طفتُ فى سياحتى بلاداً كثيرة ونقبت فى كثير من المكاتب وناظرت كثيرين من العلماءِ فلم أجد أيان سرتُ وحيثما حللت سوى آراء متناقضة ومذاهب

مختلفة وشكوك وأوهام. فإذا كانت الحقيقة لا توجد فى مكاتب العلم وصدور الناس فأين نجدها إذًا؟

فأجاب الهندى: لو كنا لا نصل إلى الحقيقة إلا بواسطة البشر لارتبنا فيها وأسأنا الظن بها. فدع الناس وشأنهم إذا أردت البحث عن الحقيقة ولا تفتش عنها فى أقوالهم وأعمالهم فإن أقوالهم وأعمالهم تزيدك تيهًا وضلالاً. وإنما فتش عن الحقيقة فى الطبيعة. وكل من يبحث عنها خارج الطبيعة يضلُّ سبيلاً. فإن الطبيعة مصدر كل ما فى الكون كما أن الله مصدر كل ما فى الطبيعة. ولغة الطبيعة لطيفة بسيطة تفهمها أبسط العقول فضلاً عن كونها ثابتة أبدية لا يطرأ عليها تعبير أو تبديل. وأما لغة الشر فأنت أدرى بما فيها من الإبهام والغموض وما يطرأ عليها من الانقلاب.

فقال الدكتور: يُؤخذ من قولك أن الطبيعة مصدر الحقائق كلها. وهو قول يصح فى الحقائق الطبيعية ولكنه لا يصح فى الحقائق التاريخية. كيف الوصول إلى معرفة ما حدث منذ ألف سنة أو ألفين دون الاستعانة بالكتب؟ فإن قلتَ: بالنقل والتواتر أجبتك أن الإنسان إنسان فى كل زمان ومكان فمن يركن إلى قوله وينزله منزلة الحقيقة الثابتة التى لا تُنقض فهو يركن إلى الجهل والضعف والتحريف والنسيان. فلا غنى لنا إذًا عن الكتب إثباتًا للحقائق التاريخية.

فضحك الهندى وقال: ولكن مَنْ كتبَ هذه الكتب؟ أليس الإنسان؟ ومع ذلك فأية حاجة بنا إلى التاريخ وكتبه؟ وأى تأثير للتاريخ فى

سعادتنا على هذه الأرض؟ بل أية علاقة بين السعادة وذكر حوادث مضت وأيام خلت. إن تاريخ ما كان لهو تاريخ ما هو كائن وما سيكون.

فأجاب الدكتور متعجباً: لقد سلمتُ بهذا الرأى. يجب أن نبحث عن الحقيقة فى الطبيعة وأن لا نعبأ بما هو خارج عنها إذ لا علاقة له بسعادتنا. ولكن ما الوسيلة التى ندرك بها هذه الحقيقة؟ أعنى دليلنا الذى نتوصل به إليها. إنا نرى الحيوانات فى الطبيعة فى حرب مستمرة فهى تقتتل وتأكل بعضها بعضاً. فهل يجب أن يفعل الإنسان بالإنسان ما يفعله الحيوان بالحيوان؟

فأجاب الهندى: كلاً ثم كلاً؛ لأن فى قلب الإنسان أساساً طبيعياً لحقوقه وواجباته وقد وضع الخالق هذا الأساس فى داخل الجنس البشرى كما توضع المنائر على شواطئ البحار لهداية السفن. وهذا الأساس هو هذه القاعدة البسيطة (افعل بالناس ما تريد أن يفعل الناس بك) هذا هو دليل الإنسان وقاعدة واجباته.

فازداد الدكتور دهشة لأصالة رأى الهندى ثم ذكر أجوبة رئيس البراهمة وقابلها بأجوبة الهندى؛ فعرف من هذه المقابلة كيف تحط الأوهام العقول وكيف يرفعها الانطلاق من أسر الأوهام.

ثم قال للخارجى: إننى أسلم بصحة آرائك فيما يختص بالحقائق الأدبية ولكن ما قولك فى الحقائق الدينية والطريق إليها؟ إن العالم مملوءٌ

بالأديان المختلفة والمذاهب المتباينة التى تفرّق الشعوب وتقسم الأمم فكيف الوصول إلى الحقيقة بين تلك المذاهب والأديان المختلفة؟

فأجاب الهندى: قلت لك فتش عن الحقيقة فى الطبيعة دون سواها. فإذا رمت الحقيقة الدينية فلا تخرج من هذه القاعدة . انظر إلى الطبيعة بقلب ساذج نقى تجد روح الله مرفرفًا على وجهها وتقرأ آيات قدرته وحكمته فى صفحاتها. أما الخلاف فى المذاهب والأديان فاضرب عنه صفحًا فإن لدى البشر من المصائب والجهل والشقاء ما يجب أن يشغلهم بحب الله تعالى وعبادته عن البحث فيه والمناظرة فى شؤونه.

فلم يتمالك الدكتور أن صاح ملءَ فيه: أحسنت أحسنت ولا سد فوك. وليت المشتغلين بتقسيم البشر وتمريقهم يسمعون هذا الكلام. بقى لى الآن سؤال واحد وهو هل إذا وجد الإنسان الحقيقة يجب عليه أن يطلع الناس عليها ؟ فإننا كثيراً ما رأينا البشر يضطهدون من يقول لهم الحق. فما رأيك فى هذا؟

فأجاب الهندى: لا أرى من الواجب أن نقول الحقيقة للأشرار والاردياء الذين يكرهونها ولكنه واجب محتوم أن نقولها للصالحين والعقلاء الذين يحبونها. ومثل الشرير والحقيقة مثل تمساح ولؤلؤة.

فإنك إذا ألقيت لؤلؤة إلى التمساح انقض عليها لسحقها بأسنانه لا ليزين بها أذنه إذ لا أذن له. ولما يعجز عن كسرها يلقيها وينقضٌ عليك منتقداً حقداً وغضباً.

فراق الدكتور هذا التشبيه الجميل فقال معجبًا: سلمتُ برأيك هذا أيضًا، ولكن لى عليك اعتراض؛ وهو أنه يؤخذ من كلامك أن الناس الأشرار يضطهدون كل من يحب الحق ويقوله لهم. فمن يجترئ والحالة هذه على التصريح بالحقيقة وتعليمهم إياها إذا كان نصيبه الاضطهاد والعدوان؟

فأجاب الهندى: للبشر مدرسة عليا تعلمهم الحقيقة وتسمعهم صوتها إذا سكتت أصوات الناس عن الجهر بها. وهذه المدرسة هى: مصائب الحياة.

فقال الدكتور معترضًا : « أما فى هذا فلست من رايك أيها الرجل الفاضل؛ لأنى أعتقد أن المصائب تحط قوى النفس وتزيد شقاءَ الإنسان. وكلما ازداد الإنسان شقاءً ازداد تمرغًا بحمأة الضعة والدناءة . فما تقول فى هذا ؟».

فأجاب الهندى : « إن قولك هذا يصدق على الإنسان إذا لم يبلغ أقصى دركات المصائب في هذه الحياة. أما الذين يبلغون قمة المصائب فإن غشاء كثيفًا يسقط عن عيونهم فيرون حينئذ الحياة وشؤونها كما يجب أن يراها العقلاء. فإن الحياة ليست بألعوبة يلهو بها الإنسان ويتمتع بملاذها؛ ولكنها صعوبة يجب عليه اجتيازها بقوة وثبات جأش وحسن تدبير. والرجل الذى لا تصيبه مصائب كبرى لا يرى الحياة كما يجب أن تُرى ولا يكتسب فيها قوة نفس لاجتيازها براحة وهدوء. ومثل

المصائب مثل جبل كشمير الذى أمامنا؛ فإنك تتعب فى صعوده ولا تجد فى وجهك إلا حجارة وشوكًا، ولكنك متى بلغت قمة هذا الجبل أبصرت منظرًا طبيعيًا جميلاً: السماء فوق رأسك والأرض بمناظرها الطبيعية الرائقة منبسطة تحت قدميك ».

فصاح الدكتور مدهوشًا:

« ما أجمل هذا التشبيه وأوضح هذا الكلام! أجل إن المصائب كالجبل الذى ذكرته وكل واحد منا أمامه جبل يجب عليه أن يصعده.

أما جبلك أنت أيها الرجل الفاضل فيلوح لى أنه كان شاهقًا جداً لأنى أراك أفضل من جميع البشر الذين عرفهم؛ ولعلَّ ذلك لأنك كنت أشقاهم. فقبل أن أسألك أن تقصّ علىَّ شيئًا من تاريخ حياتك أرجو أن تذكر لى السبب الذى من أجله صارت طائفتكم مذلولة مضطهدة ».

الفصل الثالث عشر

سبب اضطهاد البراهمة الخارجيين
وفيه إشارة إلى خطيئة آدم

فقال الخارجى :

إن السبب فى ذلك زعم البراهمة أنهم خرجوا من تراش برهما وأن الخارجيين خرجوا من رجليه. ويزيدون على ذلك قولهم : إن برهما طلب مرة فى أثناءِ سياحته فى الأرض من رجل خارجى شيئًا ليأكل فقدَّم له الخارجى لحمًا بشريًا. فمنذ هذا الحين بدأ تاريخ ذلنا واضطهادنا وحُظر علينا دخول المدن وأبيح دمنا لكل من ندنو منه.

فقال الدكتور مستغربًا:

يا للدناءَة والاستبداد! كيف استطاع البراهمة حمل إخوانكم الهنود على بغضكم واضطهادكم وإقناعهم بصحة هذا الاختلاق؟

فأجاب الهندى: بتعليمهم ذلك منذ الصغر كما تُعلم الببغاء الكلام[1].

فقال الدكتور: وماذا فعلت أنت للخروج من هذه الهاوية : هاوية التعصب والجهل التى ألقاك البراهمة فيها؟ إنى لا أعرف شيئًا فى العالم أشد إيلامًا للإنسان من جعله منحطًا فى عينى نفسه وهذا بمثابة حرمانه أعظم تعزية له؛ لأن أعظم تعزية للإنسان فى العالم إنما هى حسن ظنه بنفسه.

فأجاب الخارجى:

سألتُ نفسى أولاً عن صحة الرواية التى يروونها عن برهما فما رأيت أحدًا يرويها غير البراهمة. ثم نظرتُ فرأيت للبراهمة مصلحة فى هذه الرواية فإنهم ما زعموا أن خارجيًا أهان برهما وقدَّم له لحمًا بشريًا إلا انتقامًا من الخارجيين الذين لا يعتقدون بقداسة البراهمة وألوهية مصدرهم. ثم قلت فى نفسى: هب هذه الرواية صحيحة فالله عادلٌ ولا يشاءُ أن تؤْخذ طائفة كبيرة بجريمة واحد منها خصوصًا إذا لم يكن للطائفة يد فى تلك الجريمة. وهب أنه كان لطائفة الخارجيين يد فى هذه الجريمة فأى ذنب لأبنائهم وأبناء أبنائهم. هل يسمح الله بأن يؤخذ الآباء بجرائم الأبناء قبل ولادتهم ؟ فكيف إذًا يصح أن يقال: إنه يسمح بأن

(١) إشارة إلى الأساس الذى تبنى عليه الأوهام بين الأمم.

يؤخذ الأبناءُ بجرائم الآباء والأجداد؟ ولنسلم بأن العدالة تقضى بأن أحمل أنا تبعة الخطيئة التى ارتكبها رجل غيرى أفما آن أن تُعدّ حياتى وحياة أجدادى التعيسة كفارة عن الذنب الذى عزى إلىَّ؟ ولقد مرّ على الطائفة الخارجية ألوف من السنين ولا تزال تُرزق حتى الآن فلو كان الله ساخطًا عليها أفكان يبقى لها الحياة كل هذه المدة؟ وهل يمكن بقاءُ شخص أو شىءٍ وقع عليه غضب الله؟ كلاً . ولو كنت من المغضوب عليهم لما أنبتت لى الأرض نباتًا ولما نما شىءٌ مما تزرعه يداى. ثم قلت: لنفترض هذا وذاك فإنى أرى الله مع سخطه علىَّ يغمرنى بنعمة ويحسن إلىَّ أفلا يجب أن أتشبه أنا به وأحسن بما فى إمكانى إلى أولئك الذين كان يجب أن أبغضهم وأمقتهم؟

الفصل الرابع عشر

معيشة إنسان خارج الهيئة الاجتماعية

فقال الدكتور: وكيف كنت تحصل حاجاتك وتقوم بأود معيشتك بعد أن لفظتك الهيئة الاجتماعية من وسطها؟

فقال الخارجي:

« بعد أن خرجتُ من الهيئة الاجتماعية قلت في نفسي: بما أن جميع البشر يضطهدونك ويتخلون عنك فاسعَ أنت بنفسك لنفسك. وإن مصابك وإن كان كبيراً فإنه ليس فوق وسعك وطاقتك. والمطر مهما كان شديداً فإنه لا يقع على العصفور إلا نقطة نقطة؛ فقصدتُ الغابات وضفاف الأنهار لعلى أعثر فيها على قوت أسد به رمقى. فما كنت أجد إلا بضع ثمار برية فضلاً عن تعرضى للوحوش الضارية. فعرفتُ حينئذٍ أن الطبيعة لم تخلق الإنسان ليعيش منفرداً وتحققت أننى مرتبط ارتباطاً مكيناً بهذه الجمعية البشرية التى تلفظنى من وسطها. فتركت

الغابات والأنهار وقصدت الحقول وهى كثيرة عندنا فكنت أجد فيها شيئًا من الحبوب مما يبقى على أثر الحصاد. فصرفت مدَّة فى التطواف من إقليم إلى إقليم وأنا أتبلغ بما كنت أجده من بقايا الزراعة فى هذه الحقول . وكلما كان يفضل عنى شيءٌ من الحَبِّ كنت أبذره فى الأرض قائلاً : إذا لم أنتفع به بعد نبته وبلوغه فسينتفع به غيرى. فكنت أشعر بشيء من الراحة وبخفة تعاستى كلما رأيت نفسى قادرًا على فعل شيءٍ من الخير.



الخارجى مدهوشاً أمام المدينة

وكانت نفسى تحدثنى بدخول المدن لمشاهدتها ورؤية عظمتها؛ لأننى لم أكن شاهدت مدينة قط، وإنما كنت أشاهد من بعيد بعين الدهشة والعجب أسوارها الضخمة وأبراجها الشاهقة وقيام السفن والقوارب مصطفة على شواطئ أنهارها وازدحام المركبات المشحونة بضائع متنوعة فى طرقاتها وحركات جنود الحرب الذين كانوا يتوافدون من أقصى الأقاليم لحراسة الملكة وحفظ الراحة العمومية ووفود سفراء الدول الذين كانوا يأتون بعظمة وأبهة من الممالك الأجنبية تأييداً للسلم والاتحاد. وكنتُ كلما رأيت فى طريقى بعض هؤلاء الوفود أقترب منهم بقدر ما يجوز لى وأتأمل بدهشة فيهم وفى الغبار الذى كان يثور وراءهم. وكلما ذكرتُ المدينة التى كانوا سائرين نحوها كنت أجد فى نفسى شوقًا عظيمًا إليها وأسمع لها من بعيد هديراً عميقًا كأصوات تكسر الأمواج على الصخور. فكنت أقول فى نفسى: إن جمهوراً غفيراً يجتمع فى بقعةٍ واحدةٍ ليتعاون ويتقاسم أشغاله وحاجاته كأنه عائلة واحدة لجدير بأن يكون سعيداً هنىءَ العيش.

فكانت لذلك تشتد رغبتى فى مشاهدة إحدى المدن. وقد كنت فى ذات يوم أمام مدينة « دلهى» بينما كانت هذه الأفكار تجول فى خاطرى فقلت فى نفسى: ما الذى يمنعنى من الدخول إلى هذه المدينة فى الليل إذا كنت لا أستطيع دخولها فى النهار، إن للفأر أعداءً كثيرين ومع ذلك فإنه يخرج من وكره فى الليل مكتفيًا بنور النجوم ومستهديًا بها. ثم اشتدَّت علىَّ هذه الأفكار فعزمتُ على الدخول تحت جنح الظلام إلى تلك المدينة.

الفصل الخامس عشر

طبيعى فى المدينة
ووصفه شقاءها

ولما دخلت إليها أخذت أجول في شوارعها وكان السكون مخيمًا فيها. وما زلت أتنقل فيها مدهوشًا متأملاً حتى صرت على مقربة من حى الأعيان وكله قصور وحدائق قائمة على ضفاف نهر دجمنا. وكانت تخرج من هذه القصور رنات الآلات الموسيقية وأصوات غناء النساء وعرضهن الشجى على ضفة النهر.

فتقدمت من إحدى الحدائق لأتمتع بلذة النظر والسمع هنيهة فطردونى بالسياط عن الباب مع كل الصعاليك الذين كانوا وقوفًا عليه. وبينما كنت عائدًا من حى الأعيان مررت ببعض المعابد الهندية فرأيت فيها جماهير من البشر جاثين برعدة ورهبة والزفرات تتصاعد من صدورهم والدموع تجرى من عيونهم، فهالنى هذا المشهد المريع فأسرعت فرارًا من رؤية آثار الشقاء والأوهام. ثم مررت بمنازل الأوروبيين وحولها الحراس يصرخون دائمًا: «كابردار» أى احذروا

لأنفسكم . فسرت في طريقى فوصلت إلى بناءٍ شاهق علمت أنه سجن من سماعى جلجلة القيود فيه وأصوات التنهد والزفير الخارجة منه. وبعد ذلك سمعت صراخًا ونداءً متألمًا خارجًا من بناء آخر وتلا ذلك خروج مركبة مشحونة جثثًا بشرية فعلمت أنه مستشفى .

وفيما أنا سائر كنت أرى هناك لصوصًا هاربين والشرطة فى أثرهم. وهناك جماهير من الفقراء يلتمسون على أبواب الأغنياء فضلات الموائد والمآدب ولا يثنيهم عن طلبها الضرب والإهانة . وهناك نساءٌ يَبِعْن شرفهن ليأكلن بثمنه خبزًا وما زلت أواصل السير حتى انتهيت إلى القصر العظيم الذى يسكنه سلطان الهند الكبير.

فرأيت هذا القصر قائمًا فى وسط ساحة فسيحة الأرجاء ضُربت فيها خيام لفرق عديدة من الجنود والحراس. وكانت هذه الفرق يمتاز بعضها عن بعض بمشاعل وأعلام وعصى طويلة فى رؤوسها أذناب بقرثيبية. وكان القصر محاطًا من كل الجهات بخندق عريض تغمره المياه وعلى جانبيه المدافع صفوفًا. فلبثتُ بإزائه أقلب طرفى فى أبراج حصونه الشاهقة التى كانت كأنها تنطح السحاب وأسواره الطويلة التى كانت لطول امتدادها لا يدرك الطرف آخرها. فأخذتنى الرغبة فى الدنو منها والدخول إليها ولكن السياط التى كانت معلقة فى أحد الجدران أزالت هذه الرغبة من نفسى. فوقفتُ بعيدًا فى إحدى الزوايا بين جماعة من الزنوج الأرقاء كانوا يصطلون على نار أوقدوها وأذنوا لى بالوقوف بينهم. فمن هناك أخذت أتأمل بدهشة وتعجب فخامة القصر الملكى

وصرت أقول فى نفسى: هنا يقيم الإنسان الذى هو أسعد بنى الإنسان. هنا يقيم من يزعمون طاعته فرضًا من فروض الإيمان.

هنا يسكن مَن يأتى السفراء لتمجيده من أقاصى البلدان. هنا منزل مَن فى جوفه تفرغ أموال الأوطان. هنا مقام من لملذاته تجرى السفن فى البحار. ومن حرصًا على حياته يحمل السلاح ألوف من البشر ويحرسون منزله وهم سكونٌ فى الليل والنهار.

وبينما كنت مشتغلاً بهذه التأملات وإذا بأصوات التهليل والابتهاج قد علت من كل جهة. فالتفت فرأيت ثمانية جمالٍ مزينة وهى تنوء تحت حملها الثقيل. فسألت ما محمولها فقيل: رؤوس العصاة بعث بها إلى جلالته قادة الجيش فى إقليم دقان؛ حيث يضرم أحد أبناء السلطان نار الحرب والعصيان على والده منذ ثلاث سنوات. ولم تنقضِ فترة من الوقت حتى رأيت فارسًا على جواد ينهب الأرض نهبًا وهو يقصد القصر فسألت عنه فقيل لى: إنه رسول منفذٌ ليبلغ السلطان خيانة أحد قواده الذى سلم سلطان الفرس إحدى المدن الهندية التى على الحدود. ولم يكد يمر هذا الفارس حتى تلاه فارس آخر منفذ من والى بنغال ليبلغ السلطان أن الأوروبيين الذين منحهم السلطان حق إنشاءِ المكاتب التجارية قد بنوا قلعة على ضفة نهر الكانج وامتلكوا طريق السفر فيه. وبعد بضع دقائق خرج من القصر ضابط فى مقدمة شرذمة من الجند وقد عهد السلطان إليه أن يقبض على ثلاثة من أعيان الهنود ويزجهم فى السجن لاتهامهم بالاشتراك فى المؤامرة مع أعداءِ السلطنة. وكان

بالأمس قد أمر بسجن أحد العلماء المسلمين؛ لأنه أثنى على سلطان الفرس وقال: إن سلطان الهند كافر؛ لأنه يشرب الخمر، ويؤكد بعضهم أنه أمر بخنق إحدى نسائه وإلقائها فى لجة نهر دجمنا مع اثنين من ضباط حرسه لاتهامهم بأن لهم ضلعًا مع ابنه الذى خرج عليه. وبينما كنت أتأمل هذه الحوادث وتفاصيلها وإذا بعمود من النار قد ارتفع بغتة من مطابخ القصر إلى السماءِ فأضاءَ حصون القصر والخندق والمكان وكل ما حوله من الأبنية. ثم تلا عمود النار دخان كثيف قاتم صعد إلى العنان واختلط بالسحاب. فدوت عند ذلك فى القصر صنوج الحزن دويًا مخيفًا وانتشرت الجنود قرب القصر يحطمون الأبواب ويدفعون الناس بالسياط إلى النار ليخمدوها. وكان حول القصر عدة من الفيلة فلما أحست بحرارة النار ثارت وهجمت نحو الجمهور وجعلت تدفعهم بخراطيمها عن القصر بينما كانت الجنود تدفعهم إليه بسياطها. فأصابنى من الجانبين ألمٌ علمت منه مبلغ الألم الذى يصيب الصغار عند دنوهم من الكبار. أجل إن الكبار كالنار تحرق كل شيءٍ حتى اليد التى تُلقى فيها بخورًا متى دنت منها كثيرًا.

فحاولت الخروج من ذلك المكان فرارًا من الألم فلم أستطع ذلك إلا بشق النفس وبعناية من الله. ولمَّا تمكنت من الفرار ابتعدت ركضًا حتى انتهيت إلى أكواخ حقيرة فتنفست الصعداءَ ووقفت هناك أقول : لقد نلت ما تمنيت وشاهدت إحدى المدن. لقد شاهدتُ منازل أولئك الذين يسمون

أنفسهم رؤساء الشعوب مع أنهم عبيد لرؤساء كثيرين. أجل إنهم عبيد شهواتهم وأطماعهم وأوهامهم وبخلهم.

إنهم يخافون حتى في نومهم من أولئك الأشقياء المحيطين بهم واللصوص والشحاذين والفواسق ومضرمي النار حتى جندهم وعلمائهم وأعيانهم وكهانهم. فإذا كانت هذه هي حالة المدينة في الليل فكيف بها في النهار؟ إن عناء الإنسان يزداد بازدياد أمانيه وحاجاته ولذلك كان الملك أشد الناس عناءً لكثرة أمانيه وحاجاته. فهو يرتعد دوماً من الحروب الداخلية والخارجية ومن قواده وحرسه وكهنته ونسائه وأولاده. ومهما كانت حصونه حصينة وخنادقها واسعة فإنها لا تمنع أشباح الوهم من الوصول إليه ولا الأحزان من النفوذ إلى نفسه. أما أنا فإنني لا أخاف شيئًا وليس لظالم سلطان على نفسي ولا على جسدي.

بل إنني حرٌّ أعبد الله بحسب الطريقة التي يرسمها ضميري ولا أخاف أحداً من البشر ولا يقدر أحد أن يعذبني إذا لم أعذب أنا نفسي. فلا ريب في أنني أنا « الخارجي » المضطهد المذلول أقل شقاءً وتعاسة من الملك.



« وأذهب بعيداً عن الناس أقضى أكثر أوقاتى تحت ظل شجرة جميلة وأنام هناك على نغم العصافير المعششة فيها ».

ولما قلتُ هذا خررتُ ساجداً على الأرض وشكرت الله الذى أرانى مصائب أعظم من مصائبى ليجعلنى أحتمل حياتى ويعلمنى القناعة والرضى والتسليم.

ومنذ هذا الحين صرت أجتنب داخل المدينة ولا أقرب إلا أطرافها. فكنت آتيها كلما جنَّ الليل وأجول في أسواقها الخالية وشوارعها المقفرة فيخيل لي في هدوء الليل وسكونه أنه ليس في المدينة حيٌّ سواي وأنني ربُّ تلك المدينة العظيمة. غير أنني لم أكن أجد في تلك المدينة التي كنت أحسبها ملكًا لي شيئًا أمسك به رمقي فتركت الأحياء لما لم أجد فيهم مساعداً وصديقًا ولجأت إلى الأموات. فكنت أذهب إلى المدافن وأتغذى بالطعام الذي يلقيه الأهالي على القبور زكاة عن نفوس موتاهم. وكان يحلو لي التأمل هناك وأنا منفرد عن البشر فكنت أقول في نفسي وأنا بين القبور: هذه مدينة السلام.

هنا تُدفن القوة والكبرياءُ. هنا تجد الفضيلة والطهارة حمًى يرقدان فيه بأمان. هنا تُطوى كل أحزان الحياة ومخاوفها حتى الخوف من الموت نفسه. هنا المنزل الرحب الذي يرقد فيه براحة وسلام الكبير والصغير. البرهميّ والخارجيّ. وكلما كنت أستسلم إلى هذه التأملات كنت أكره الحياة وأحتقر الدنيا وأستعذب ورود الموت. وكنت ألبث ساعات متجهًا نحو المشرق وعيناي تتأملان في النجوم والكواكب العديدة الطالعة منه. ومع أنني كنت أجهل مصير هذه الأجرام ومبدأها فقد كنت أشعر بأنها مرتبطة بالإنسان وأحسُّ بأن الطبيعة التي خلقت لنفع البشر أشياءَ كثيرة لا تقع تحت نظرهم يجب أن تكون قد ناطت بهم على الأقل تلك الأشياءَ التي تحت نظرهم. فكانت نفسي لدى هذه التأملات ترتفع إلى العلا مع الكواكب والنجوم. ولما كان ينشقُّ الفجر وتنبعث خيوط

نوره فتمتزج بنورها اللطيف كنت أخال نفسى على أبواب السماء. ولكننى لما كنت أرى عصابة النور تعمم الهياكل والأبنية الشاهقة التى حولى كنت أنسلّ من أطراف المدينة بسرعة وأذهب بعيداً عن الناس أقضى أكثر أوقاتى تحت ظل شجرة جميلة وأنام هناك على نغم العصافير المعششة فيها.

الفصل السادس عشر

كيف أحب الخارجي امرأته؟

وكان الهندي يتكلم والدكتور مصغ إليه بانتباه شديد الشدة إعجابه بكلامه وتأثره فلما سكت الخارجي ليستريح هنيهة قال الدكتور:

لقد أثَّرتْ بي قصتك أيها الرجل الفاضل وراقني وصفك للطبيعة وحبك لها فإن للطبيعة محاسن ليلية لا تنقص عن محاسن النهار وأعرف شاعرًا من أبناء وطني لم يكن يحلو له إلا الترنم بها. ولقد علمت الآن كيف كنت تعيش في الليل فأخبرني كيف كنت تعيش في النهار؟ وكيف توصلتَ إلى السعادة التي أنتَ فيها الآن؟

فأجاب الخارجي:

لقد كنت أقضي الليل هنيئًا، وكثيرٌ لمثلي الهناءُ نصف يومه. إلا أنني ما لبثتُ أن شعرت بعذاب الوحدة وعناء الانفراد؛ لأن للوحدة عناءً

كما لها هناء. وقد يخيل للتعيس أنها المرفأ الأمين يرى منه أهواءَ البشر وشهواتهم فى نضال وعراك من غير أن يكون لهذه الأهوال والشهوات طريق إلى نفسه. ولكنه خاب ظنه فإنه بينما يكون مستريحًا فيها ومسرورًا بسكون جأشه وهدوء أهوائه يعدُّ له الزمان ما يهيج أشجانه. فقد قدّر للإنسان أن لا يلقى مرساته فى نهر هذه الحياة وقدّر لهذا النهر أن يكون طاغيًا يأُخذ تياره كل ما فى طريقه سواء واجهه أو جاراه. يأخذ العاقل والجاهل معًا وكلاهما بعد قضاء أيامهما فى هذه الأرض ينتهيان إلى حد سياحتهما وهو القبر دون أن يتمتعا بلذة الحياة؛ لأن أحدهما يكون قد أغفل لذة أيامه والثانى أساءَ استعمالها. فرأيتُ نفسى بحاجة إلى الاجتماع لأننى لست أكثر حكمة من الطبيعة ولم أجد سبيلاً إلى السعادة إلا بواسطة النواميس الأبدية التى وضعها الخالق لها. وكانت نفسى تطلب صديقًا صادقًا يشاركنى فى السراء والضراء فالتمستُ هذا الصديق بين البشر فلم أجد فيهم سوى كل حاسد. ولكنى وجدت بعد بحث طويل صديقًا حساسًا أمينًا لا ينكر الجميل وليس للوهم سلطان على قلبه وهو كلبى هذا.

فإننى وجدته فى ذات يوم ملقى فى إحدى زوايا المدينة وهو فى خطر الموت جوعًا فرقَّ له قلبى فحضنته وعنيت بتربيته فتعلق بى وصار شريكًا وصديقًا مخلصًا لى. غير أنى لم ألبث أن وجدت صداقته غير كافية؛ لأنى كنت بحاجة إلى صديق أشد تعاسة من نوع الحيوان

إلى صديق خَبُر الناس وعرف جميع متاعب الحياة البشرية ومصائبها ليساعدني على احتمال مصائبي ويرافقني على المعيشة في الطبيعة فنتمتع بخيراتها معًا. وهل تثبت تجاه العاصفة شجيرة ضعيفة إذا لم تشتبك بشجيرة مثلها وتستند إليها؟ فأجابني الله إلى طلبي وأعطاني امرأة صالحة. ولا تعجب إذا قلت لك : إنني استقيت مياه سعادتي من نبع مصائبي. وبيان ذلك أني قصدتُ في إحدى الليالي



البرهمية قبل أن يتزوجها الخارجي تضع الطعام على قبر أمها جريًا على عادة البراهمة

مدافن البراهمة فرأيت فيها على ضوء القمر فتاة برهمية مستترة بغطاء أصفر اللون. فلما وقعت عيني على شخص من دم أولئك الظلمة الطغام الذين هم أصل مصائبي رجعت القهقرى مذعوراً. ولكنني عدت فتقدمت منها ورقّ لها قلبي وكل جوارحي حين عرفت الغرض الذي جاءت إلى المدافن من أجله.

فإنني رأيتها منهمكة بوضع طعام على قبر يضمُّ رماد أمها التي أُحرقت حية مع زوجها منذ عهدٍ قريب جريًا على عادة البراهمة. ثم رأيتها تحرق بخوراً على ذلك القبر استدعاءً لروح أمها. فاغرورقت عيناي بالدموع لدى رؤيتي بشراً أشد تعاسة مني فجعلت أقول في نفسي وأنا ناظر إليها: إنني أعيش مستريحًا في هاويتي أما أنت فإنك تقيمين مرتجفة مرتعدة على شفا وهدتك. أنتِ لمْ تعطى إلاَّ حياة واحدة ومع ذلك فإنهم يطلبون منك أن تموتي ميتتين. ولا يبعد أن يصيبك غداً ما أصاب أمكِ فيجرّك موت زوجك إلى القبر وأنتِ ممتلئة حياة وشباباً. ثم بكيتُ لتفكيري بذلك وكانت هي تبكي أيضًا فالتقت أعيننا وملئها الدموع فتخاطبت من غير أن تتكلم كما تخاطب أعين التعساءِ.

ثم صرفتْ الفتاة نظرها عني وتسترت بغطائها وسارت وأنا أنظر إليها.

وفي الليلة التالية عدتُ إلى هذا المكان. فرأيت على قبر أمها طعاماً كثيراً كأنها علمت أنني محتاج إلى الطعام. وبما أن البراهمة يُسمِّون

كل ما يضعونه على قبور موتاهم لئلا يأكله الخارجيون؛ فإنها لم تضع غير ثمار على القبر مخافة أن أسيءَ الظن بالطعام. فأثر فيَّ هذا الجميل وهذه الشفقة فشكرتها فى نفسى على رقة قلبها.

الفصل السابع عشر

التخاطب بلغة الأزهار في الهند

ورغبة فى إظهار ما كان فى نفسى من الاحترام لها قطفت أزهاراً ووضعتها فوق الأثمار من غير أن أتناول من الأثمار شيئًا . وكانت الأزهار التى وضعتها من نوع الخشخاش وهى رمز عندنا إلى الاشتراك فى الحزن. ففى الليلة التالية رأيت أن عملى قد نال حظوة فى عينها؛ لأنى وجدتها قد اعتنت بأزهارى فرتبتها وسقتها ووضعت بجانب القبر سلة ثانية من الأثمار.

فجرأنى جميلها على إظهار ما بدأت أشعر به من الانعطاف إليها فاستعنتُ بلغة الأزهار جرياً على العادة فى الهند. فأضفتُ إلى أزهار الخشخاش « زهرة الحزن » وهى زهرة معروفة عندنا . ثم جئتُ فى الليلة التالية فوجدتها قد سقتها أيضاً . فزادنى الأمل جرأة فأضفت إلى زهرة الحزن زهرة القولسيات وهى زهرة يتخذها صناع الأحذية لصبغ الجلود بلون أسود وبها يرمز الرامزون إلى حب كله تواضع وعذاب. ثم بكرتُ

فى صبيح اليوم التالى إلى المدفن لأرى الزهرة فوجدتها ذابلة؛ لأنها لا تسقيها. فوضعت فوقها وأنا مضطرب زهرة الخزام وهى زهرة ذات أوراق حمراءَ وقلب أسود رمزًا للنار التى كانت تقد فى قلبى. ثم عدتُ فى الغد فوجدتُ زهرة الخزام ذابلة ذاوية أيضًا فاستولى عليَّ الحزن ولكننى تصبرتُ ووضعت زرّ ورد مع شوكة رمزًا إلى أمل يخالطه خوف. فوجدتُ زرَّ الورد فى اليوم التالى ملقى بعيدًا عن القبر. فأصابنى اليأس وكدتُ أفقد الرشد فعقدت النية على مخاطبتها متى رأيتها. ولما شاهدتها داخلة إلى المدفن انطرحتُ على قدميها وفى يدى زرٌّ ورد بشوكة ولكنى لم أستطع أن ألفظ كلمة. فصاحت بى الفتاة حزينة: « يا لتعاستك وتعاستى. تطارحنى الحب وأنا بين الموت والحياة. لقد مات زوجى فيجب أن أتبعه إلى محرقته. اقترنتُ به فتاة وهو شيخ وقد مات فيجب أن أموت معه. الوداع. اذهب من هنا وانسنى فإننى لا أكون بعد حين إلاَّ رمادًا » .

ثم تنهدت تنهدًا فتت قلبى فأجبتها : « لقد قطعت الطبيعة الرباط الذى كان يربطك بزوجك أيتها الفتاة التعيسة فاقطعى بيدك أربطة الأوهام وهلمى فاتبعينى لأكون زوجًا لكِ».

فأغرقت الفتاة فى البكاء وصاحت : « أأفرُّ من الموت وأتبعك لأعيش معك فى الذل والهوان؟ كلاَّ بل دعنى أموت إذا كنت تحبنى ».

ففعل كلامها فى قلبى فعل السهام فأجبتها : « معاذ الله أن

أرضى بإنقاذك من مصائبك لأضعك تحت نير مصائبى. وإنما أردت أن نتوارى كلانا عن أعين الناس فهلمى بنا يا عزيزتى.

هلمى نهرب إلى الغابات والأحراش فخير للإنسان أن يلتجئ إلى الأسود والنمور من أن يلتجئ إلى الإنسان. ومع ذلك فالله لا يدعنا نهلك إذا اتكلنا عليه. هيًا فكل شيء يُعد لنا سبيل الفرار : حُبِّى وظلام الليل وخلوّ البلاد. أسرعى أيتها الأرملة التعيسة فإن المحرقة قد أُعدت وزوجك الميت يدعوكِ إليها. تعالى أيتها الزهرة الملتوية واستندى إلىَّ فأكون لكِ عونًا وسندًا».



إحراق الموتى فى الهند
الميت ممدود فوق الحطب ورجلان يضرمان النار فيه
والدخان بدأ يرتفع منه

ولما أتممتُ كلامي ألقت الفتاة نظرة إلى قبر أمها كأنها تودعها وأخرى إلى السماء كأنها تستعينها ثم ألقت إحدى يديها في يدى وتناولت بالأخرى الوردة التي كنت أقدمها لها. فأخذتُ في الحال ذراعها وسرنا معًا سيرًا حثيثًا.

ولما مررنا بنهر الكانج ألقيتُ فيه غطاءها إيهامًا لأهلها إذا وجدوه أنها أغرقت نفسها. فصرفنا أيامًا عديدة على الطريق وكنا نسير في الليل ونختبئ في الأدغال كلما طلع النهار. وما زلنا سائرين حتى انتهينا إلى هذه البلاد فوجدناها قفراءَ لأن الحروب الماضية أفنت أكثر سكانها. فاخترنا الإقامة فيها وبينما كنا نفتش عن مكان ملائم لنا عثرنا على هذه الغابة فبنينا فيها هذا الكوخ المستتر عن أعين الناس وغرسنا هذه الأشجار المثمرة التي منها طعامنا وأقمنا في عيش رغيد وبال رخي فنحن السعداءُ الآن على هذه الأرض إذا كان فيها سعادة. وإني أجلُّ امرأتي كما أجلُّ الشمس وأحبها كما أحب القمر ولا ملذة في العالم تساوي عندي ملذة معيشتي معها. ولذلك نعتبر أنفسنا سعداءَ في وسط هذه الوحدة. وإن كلامها في أذني وكلامي في أذنها لأعذب عندنا من أصوات جميع الناس وأطرب من ثناءِ الشعوب ».

قال الخارجي ذلك ثم نظر إلى سرير ولده وابتسم له ولامرأته التي كانت بجانب السرير تذرف دموع الفرح والسعادة.

فمسح الدكتور دموعه أيضًا لأنه بكى من كلام الخارجى ثم قال له:
« حقًا إن من يحترمه البشر قد يكون جديراً بكل احتقار ومن يحتقرونه قد يكون جديراً بكل احترام. وأنت ورأس البراهمة خير مثال لذلك. ولكن الله عادل فأنت فى كوخك هذا أهنأُ عيشًا وأصلح حالاً من رئيس البراهمة فى كل عظمته ومجده. فهو مع طائفته لا يهنأُ لهم بال ولا يصفو لهم عيش فإنهم يحملون تبعة الحروب الداخلية والخارجية وتُعزى إليهم كل الفتن والاضطرابات التى تحدث فى المملكة، فضلاً عن أنهم لكثرة حضهم الشعب على الاستمساك بالخرافات والأوهام التى يلفقونها ينتهون إلى الاعتقاد بصحتها اعتقاداً ينزع من نفوسهم عاطفة الحقيقة والعدالة والشفقة ويقيدهم بقيود الأوهام والعبودية التى أعدوها لأبناءِ وطنهم. فيحرمون على ذواتهم الملاذ الطاهرة التى حللها الله ويقضون على أنفسهم بعناءِ الاغتسال والتطهير مراراً فى النهار وبإحراق إخوانهم وبناتهم وأمهاتهم على مرأى منهم . ولا ريب أن ذلك عقاب لهم على دوسهم الطبيعة ومناقضتهم نواميسها. وأما أنت فإنك تعيش سعيداً هنيءَ البال؛ لأنك تحترم الطبيعة وتعمل طبقًا لنواميسها. ولا شبهة فى أنك أسعد وأعظم من الملوك والعظماء والبراهمة ».

الفصل الثامن عشر

السفَر

ولما أتم الدكتور كلامه استأذنه الخارجي في مفارقته ليتركه يستريح من تعب السفر وعناء النهار. ثم خرج مع امرأته وابنه إلى القسم الثاني من الكوخ. فنام الدكتور وهو يفكر في أقوال الخارجي. وفي الصباح انتبه الدكتور باكراً على أصوات العصافير المعَششة في الشجرة التي كانت تظل الكوخ وعلى صوت الخارجي وامرأته اللّذيْن كانا يصليان صلاة الصباح. فنهض من فراشه ودخل إلى القسم الثاني لمشاهدة الخارجي فلم يجد في المكان فراشًا فعلم أنهما باتا في تلك الليلة على الأرض أو قضيا ليلهما ساهرين ليجعلاه ينام مستريحاً على الفراش الوحيد الذي عندهما. ولما أبصره الزوجان ألقيا السلام عليه ببشاشة ثم أخذا في إعداد طعام الصباح. فخطر للدكتور أن ينزل إلى الحديقة لمشاهدتها والتنزه فيها فخرج وأخذ يتنزه بين أشجارها الملتفة المثقلة بالأثمار وهو مشتغل عن المواضيع العلمية والأطماع العالمية.

وكان يراجع فى نفسه أقوال الخارجى فيجد أن هذا الرجل العائش عيشًا طبيعيًا هو أسمى عقلاً وأصبح شعوراً وأسلم بدنًا من العلماء والفلاسفة اللذين صرفوا أيامهم بين كتب العلم والفلسفة.

وبعد وقت قصير خرج الخارجى من الكوخ ليدعو الدكتور إلى طعام الصباح. فقال له الدكتور وهو ينتقل فى حديقته :

إن حديقتك جميلة ولكن لماذا لا توسعها فإنى أراها صغيرة ؟

فأجاب الخارجى: كلما كان منزل الإنسان صغيراً كان ذلك أسهل لاختبائه وتستره. وإن ورقة واحدة من الشجر كافية لبناءِ عش عصفور.

ثم دخلا إلى الكوخ فوجدا الطعام معدًا فجلسا يأكلان وهما صامتان. ولما نهض الدكتور عن الطعام أبلغ الخارجى أنه عزم على السفر فحزن الخارجى وقال له:

تمهَّل يا سيدى فإن مياه المطر لم تجف فى الطرق بعد فأتم جميلك علينا واصرف هذا النهار عندنا.

فقال الدكتور: لا أستطيع ذلك يا صاحبى؛ لأن فى صحبتى أناسًا كثيرين .

فقال الخارجى: أظنك اشتقت إلى بلادك حتى رغبت فى سرعة العودة إليها. فسر يا سيدى إلى تلك البلاد السعيدة التى يعيش البشر فيها باتحاد وسلام كأنهم إخوة فى عائلة واحدة.

فنهض الدكتور وهو يتنهد من أعماق قلبه. ثم قال فى نفسه متهكمًا : « نعم نحن نعيش كإخوة فى عائلة واحدة .... ».

ثم أشار الخارجى إلى امرأته فأتت بسلة مملوءة بالأزهار والأثمار وقدمتها للدكتور وهى مطرقة إلى الأرض. فتكلم الهندى بالنيابة عنها قائلاً :

نلتمس منك يا سيدى أن تعذرنا لفقرنا فإننا لا نملك طيبًا لتطيب به ضيوفنا جريًا على العادة فى الهند وإنما طيبنا أزهارنا.

فتنازل إلى قبول هذه الأثمار التى جنتها يد امرأتى. وهذه الأزهار التى رائحتها ثابتة رمزًا إلى ثبات حبنا وإخلاصنا ودوام ذكرك عندنا.

فتناول الدكتور السلة بسرور وأجابه قائلاً:

لا أستطيع أن أقضى حق ضيافتك يا أخى ولا أن أبدى كل ما فى نفسى من الاحترام والحب لك. ولكنى أقدم لك هدية أيضًا لتذكرنى بها كما أننى سأذكرك بهديتك. فاقبل منى على سبيل التذكار ساعتى الذهبية فإنها من معمل كراهام أشهر ساعاتى لندن ويكفى أن تدار مرة واحدة فى السنة ».

فأجاب الهندى: لسنا بحاجة إلى ساعة يا سيدى؛ إذ لدينا ساعة لا تقف ولا يطرأ عليها خلل وهى : الشمس.

فقال الإنجليزى: ولكن ساعتى تنبه فى كل ساعة.

فأجاب الهندى . لا نحتاج إليها يا سيدى فإن عصافير حديقتنا تفعل فعلها .

فقال الإنجليزى مدهوشًا: فاقبل منى إذًا هذه العقود المرجانية لامرأتك وطفلك.

فأجاب الهندى: إنَّ امرأتى وطفلى فى غنى عن هذه العقود؛ لأن الأزهار كثيرة فى الحديقة.

فقال الإنجليزى: فاقبل إذًا هذين المسدسين لتدفع بهما عن كوخك غارات اللصوص فى هذه البرية المقفرة.

فقال الهندى : إن الفقر سور يُبعد اللصوص عن الفقراءِ وربما كانت قبضة غدارتك المفضضة سببًا لجلب اللصوص إلينا فلا يعود رصاصها ينفعنا . فأستحلفك بالله الذى بين يديه حياتنا والذى منه وحده ننتظر مكافأتنا أن تترك لنا فضل ضيافتك ولاتجتهد فى ابتياعه منًّا.

فقال الدكتور وقد تأثر جدًا من هذا الكلام: ولكنى فى كل حال أحب أن يكون بين يديك أثر منى.

فقال الهندي: أحسنْتَ في هذا الفكر يا سيدى ورغبةً في ذلك أقترح عليك مبادلة جميلة وهى أن تهبنى غليونك وأهبكَ غليونى فيكون فى يدى أثر منك وفى يدك أثر منى. وكلما دخنت فى غليونك ذكرتك وذكرت على الخصوص أن عالمًا من علماء الإفرنج تنازل إلى قبول ضيافة خارجى حقير مثلى ولما يترفع عن مجالسته ومؤاكلته.

فقدَّم إليه الدكتور غليونه وكان مصنوعًا من الجلد الإنجليزى وفمه من الكهرباء ثم تناول غليون الهندى وكان من الخيزران وفمه من الطين المشوى.

ثم إن الدكتور نادى حاشيته ودنا من الخارجى فعانقه وودع امرأته وولده. وكانت المرأة واقفة أمام الكوخ تبكى لفراق الضيف وطفلها بين ذراعيها. ثم سار الدكتور نحو هودجه فلحق به الهندى إلى طرف الحرش وهو يدعو له بقوله :

« فليكافئك الله على التفاتك للتعساءِ. ليجعلنى فدًى عنك إذا كان قد قدَّر لك شرًا. ليبلغك وطنك براحة وأمن وليوصلك بسلام إلى تلك البلاد الجميلة وطن العلم والعلماءِ حيث يعيش البشر باتحاد كلهم إخوان ويبذلون كل ما فى وسعهم للتفتيش عن الحقائق وخدمة بنى الإنسان ».

فأجابه الدكتور بهذه الكلمات الوجيزة التى يجوز أن تُعتبر حكمًا على الهيئة الاجتماعية الحاضرة . وهى :

« يحق لك أيها الإنسان الفاضل أن تفخر على بنى البشر قاطبة؛ فإننى اجتزت فى سياحتى هذه نصف الكرة الأرضية ومع ذلك فإنى كنت أرى حيثما نزلتُ رواق الجهل والشقاء ممدوداً . ولم أجد الحقيقة والسعادة إلاَّ فى كوخك هذا ».

التصحيح اللغوى : إيمـــــان علـــــى
الإشـــراف الفنى : حســـــن كامـــل